الاصطفاء في القرآن الكريم

إعداد
إسحاق عويضة أبو صعيليك

المشرف
الأستاذ الدكتور فريد مصطفى السلمان

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في
التفسير - الشريعة
كلية الدراسات العليا
الجامعة الأردنية

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ... التاريخ ...

ربيع الأول ١٤٢٣هـ
أيار ٢٠٠٢م

٧/ ٢٠٠٦
ص ٢
١٦٤

لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ: ٢٠٠٢/٥/٢٣م ، وكانت لجنة المناقشة تتكون من الأساتذة الأفاضل:

١- الأستاذ الدكتور: فريد مصطفى السلمان (مشرفاً) ....

٢- الدكتور: أحمد خالد شكري (عضواً) ....

٣- الدكتور: أحمد فريد أبو هزيم (عضواً) ....

٤- الدكتور: عبد الرحيم أحمد الزقا (عضواً) ....

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الإهداء

إلى التي ربّتني صغيراً، ورعتني كبيراً...

إلى التي كابدت الآلام لي صغيراً، وشقّت الصعاب لي كبيراً...

إلى التي تفيض عليَّ دائماً حُباً وحناناً وأملاً...

إليك يا أمي أهدي هذا العمل المتواضع، وإني لأرجو الله أن يجعله في ميزان حسناتك.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

شكر وتقدير

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩]

يطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساعد في إخراج هذه الرسالة بالشكل الذي هي عليه الآن، سواء أكانت هذه المساهمة على شكل توجيه مباشر، أم على شكل تقديم ملحوظات جانبية تفيد الرسالة.

وإنني في مقامي هذا لأخص بالشكر معلمي الفاضل وشيخي الأستاذ الدكتور فريد مصطفى السلمان الذي كان له الأثر الأكبر في إيجاد الرسالة على هذا الشكل، حيث كان لي نعم المشرف الصدوق الذي لم يدخر جهداً في تقديم النصائح والتوجيهات التي أثْرَت الدراسة، حتى لو كان ذلك على حساب راحته ووقته مع أهله وبيته.

كما أتقدم بالشكر الخاص لأساتذتيّ الأفاضل الذين وافقوا على مناقشة هذه الرسالة، لإثرائها بالملحوظات العلمية القيمة.

ولا أنسى كذلك أن أقدم شكري لصديقي الفاضل الأخ الكريم منصور أبو زينة الذي كان له أثرٌ طيبٌ في توجيهي ونصحي متى أمكن ذلك.

وأخيراً أشكر الأخ الفاضل صلاح سعده الذي قام بطباعة هذه الرسالة والذي كان لي نعم الصديق ونعم الأخ المخلِص.

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
أسماء أعضاء لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
الشكر	د
المحتويات	هـ
الملخص بلغة الرسالة	ز
المقدمة	ح
الفصل الأول: تعريف الاصطفاء وأهميته	١
المبحث الأول: الاصطفاء لغة والألفاظ القريبة في المعنى منه	٢
المطلب الأول: الاصطفاء في اللغة	٢
أولاً: معنى الاصطفاء عند ابن فارس	٢
ثانياً: معناه عند أبي منصور الأزهري	٣
ثالثاً: معناه عند الراغب	٤
رابعاً: تعريفه عند ابن منظور	٥
خامساً: تعريفه عند السمين الحلبي	٦
سادساً: معناه عند أبي البقاء	٧
المطلب الثاني: الاصطفاء واشتقاقاته في السياق القرآني	٨
المطلب الثالث: الألفاظ القريبة في المعنى من الاصطفاء	١٢
المبحث الثاني: أهمية الاصطفاء	١٤
الفصل الثاني: الاصطفاء المتعلق بالإنسان	١٨
تمهيد	١٩
المبحث الأول: اصطفاء الإنسان من حيث إنسانيته	٢٠
المبحث الثاني: اصطفاء الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام	٢٧
المطلب الأول: اصطفاء الرسل والأنبياء عامة	٢٧
المطلب الثاني: تفضيل بعض الأنبياء على بعض	٣٢
المبحث الثالث: نماذج قرآنية في اصطفاء الأنبياء والرسل	٣٧
المبحث الرابع: اصطفاء الدين للناس	٦٦
المبحث الخامس: اصطفاء الأمم	٧٠

مركز إيداع الرسائل الجامعية

المطلب الأول: اصطفاء بعض الأمم السابقة ٧٠

المطلب الثاني: اصطفاء أُمة محمد ﷺ ٧٤

المبحث السادس: اصطفاء الشهداء ٨٤

الفصل الثالث: اصطفاء الملائكة.. ٨٧

تمهيد ٨٨

المبحث الأول: اصطفاء الملائكة بشكل عام.. ٨٨

المبحث الثاني: بعض أصناف الملائكة المصطفاة ٩٤

المطلب الأول: الملائكة الحفَظَة ٩٤

المطلب الثاني: رسُل الملائكة.. ٩٦

المطلب الثالث: ملائكة البُشرى.. ١٠٠

الفصل الرابع: اصطفاء الزمان والمكان ١٠٢

تمهيد ١٠٣

المبحث الأول: اصطفاء الزمان ١٠٤

المطلب الأول: شهر رمضان ١٠٤

المطلب الثاني: الأشهر الحرم ١١٢

المطلب الثالث: يوم الجمعة ١١٥

المبحث الثاني: اصطفاء المكان ١١٧

المطلب الأول: مكة المكرمة.. ١١٧

المطلب الثاني: المدينة المنورة.. ١٢١

المطلب الثالث: الأرض المباركة ١٢٢

الفصل الخامس: سبب الاصطفاء وآثاره.. ١٢٥

تمهيد ١٢٦

المبحث الأول: سبب الاصطفاء.. ١٢٧

المبحث الثاني: الآثار المترتبة على الاصطفاء ١٣٢

المطلب الأول: الآثار المترتبة على الاصطفاء المتعلق بالإنسان ١٣٢

المطلب الثاني: الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة والزمان والمكان ١٣٩

أولاً: الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة.. ١٣٩

ثانياً: الآثار المترتبة على اصطفاء الزمان والمكان ١٤١

الخاتمة.. ١٤٣

المراجع.. ١٤٥

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

الملخص باللغة الإنجليزية ١٥٤

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ملخص
الاصطفاء في القرآن الكريم

إعداد

إسحاق عويضة أبو صعيليك

المشرف

الأستاذ الدكتور

فريد مصطفى السلمان

من الموضوعات المهمة التي تناولها القرآن العظيم، الاصطفاء، وهو ما عالجته هذه الدراسة. وتظهر أهمية هذا الموضوع (**الاصطفاء في القرآن الكريم**) في أنه يكشف لنا عن جانب من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في شتى جوانب الحياة الإنسانية، فجاءت هذه الدراسة لتميط اللثام عن كثير من المعتقدات الخاطئة حول جوانب الاصطفاء ومجالاته، وأسبابه، وآثاره، وتقدمه بصورة علمية مؤصّلة، وفق منهجية علمية معتمدة من العلماء.

لقد بينت هذه الدراسة معنى الاصطفاء في اللغة والألفاظ القريبة في المعنى منه، ثم عرضت لأهم مجالات الاصطفاء: الإنسان والملائكة والزمان والمكان. ففي مجال اصطفاء الإنسان، بينت الدراسة أن الإنسان مصطفى من حيث هو إنسان، ثم إن الله عز وجل اصطفى من جنسه رسلاً، واصطفى لهم ديناً قيماً، وجعل الله أساس رفعة الإنسان هو التزامه بهذا الدين، سواء أكان ذلك على شكل أفراد أم على شكل جماعات وأمم. وفي مجال اصطفاء الملائكة، بينت الدراسة أن الله عز وجل اصطفى الملائكة وجعلهم عبيده المنفذين لأمره، المتصرفين في خلْقه بإذنه سبحانه. وفي مجال اصطفاء الزمان والمكان، بينت هذه الدراسة أن الله فضّل بعض الأزمنة على بعض، مثل شهر رمضان وليلة القدر ويوم الجمعة وعشر ذي الحجة، وفضّل بعض الأمكنة على بعض، مثل مكة المكرّمة والأرض المباركة.

وقد ختمت الدراسة ببيان أنّ الاصطفاء ليس له سبب يتوقف وجوده عليه، بمعنى أن الله عز وجل يهب اصطفاءه لمن يشاء ومن غير سبب، ثم بينت الدراسة أن الله عز وجل إنما جعل مرتبة الاصطفاء لتحقيق العبودية له سبحانه، فعلى أساس العبودية لله يتمايز الأفراد، وتتمايز الأمم، فإذا التزم الإنسان طريق العبودية لله صعد إلى العلياء، وحاز مرتبة الأولياء، أما إذا حاد عن الطريق، هبط وانحطّ إلى أسفل سافلين.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الاصطفاء من نعمه وآلائه، واتخذ أصفياءه من خاصة أوليائه، فبهرهم بكرمه وعطائه، وأنعم عليهم بدخول روضة قدسه وثنائه، والصلاة والسلام على سيد أنبيائه، وأصفيائه، صلاة وسلاماً ما لاح برق في دجى ظلمائه، الصادق المصدوق بعهد الله وولائه، وأصحابه المبشرين بالجنة وخيرة خلفائه، وآله وأتباعه الذين اهتدوا ببهائه، أما بعد:

فإن القرآن حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، والذّكر الحكيم، الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الآراء، ولا يمل منه الأتقياء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه.. ولقد سلك العلماء في النهل من معين هذا الكتاب الخالد طرائق شتى، واتبعوا مناهج مختلفة، فكان من هذه الأساليب والمناهج التفسير الموضوعي، الذي يدخل هذا البحث في نطاقه ليشكل جزءاً من منظومة الموضوعات القرآنية التي تعالج مناحي الحياة المتجددة على تعاقب الدهور والعصور.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وموضوع هذا البحث هو ما ذكر في القرآن الكريم من اصطفاءات الله سبحانه لبعض خلقه من بشر وملائكة وزمان ومكان، لذا آثرت أن أسميه: **(الاصطفاء في القرآن الكريم)**.

وتكمن أهمية هذا البحث فيما يلي:-

أولاً: أنّ هذا النوع من الدراسات القرآنية في التفسير الموضوعي يتفق مع روح العصر ويُظهر إعجاز القرآن الكريم في شتى جوانب الحياة الإنسانية.

ثانياً: أن هذا الموضوع -فيما أعلم- لم يُفْرد بالبحث والدراسة العلمية المؤصلة، ووفق المنهجية المعتمدة في التفسير الموضوعي.

ثالثاً: أن هذه الدراسة تميط اللثام عن كثير من المعتقدات الخاطئة، حول جوانب الاصطفاء ومجالاته، وأسبابه وآثاره، وتقدمه بما يُظهر أبعاده الحقيقية.

رابعاً: أنّ هذا الموضوع الذي تعالجه الدراسة له اتصال وثيق بالعقيدة الإسلامية الـــتي هـــي ملاك الأمر كله.

خامساً: أنّ موضوع هذه الرسالة (الاصطفاء) يبين للإنســـان موقعـــه الصحيـــح في ســـلّم المخلوقات من جهة، ويضع المخلوقات في أماكنها المقدرة عند الله من جهة أخـــرى؛ ذلك أن مرتبة الاصطفاء هي مرتبة تمايُز بين الخلائق.

سادساً: أنّ مرتبة الاصطفاء هي مرتبة تَمَايُز بين الأمم، فعلى أساس الاصطفاء والاختيار الإلهي بين الخلائق ترتفع أمة على الأمم، وعلى أساسه قمبط الأمم وتنحط.

سابعاً: أن هذه الرسالة تكشف عن بعض الجوانب التي تمتاز بها هذه الأمة المصطفـــاة –أمـــة محمد صلى الله عليه وسلم– على غيرها من الأمم إنْ هي قامت بوظيفتها تجاه الرحمـــن وحققت الغاية من وجود الإنسان، عندئذ تركب هذه الأمة الطائعة مركب القيـــادة البشرية، وتقودها بمنهج المصطفى نحو بر الأمان.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

منهجية البحث:

تقوم منهجية هذا البحث على الركائز التالية:–

أولاً: المنهج الاستقرائي، وذلك من خلال تتبع الآيات القرآنية التي ذكرت الاصطفاء بلفظـــه أو بمعناه، مع ذكر ما يعزز ذلك من الأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الموضوع.

ثانياً: المنهج الاستنباطي، ويقوم على دراسة تلك الآيات المذكورة دراسة موضوعية شـــاملة، من خلال ما يلي:

١– بيان المعنى اللغوي للاصطفاء والألفاظ القريبة منه.

٢– استخلاص الدلالات والمفاهيم، والظلال والإيحاءات المستنبطة من آيات الاصطفاء في القرآن الكريم.

٣– بيان مجالات الاصطفاء وجوانبه وأسبابه والآثار المترتبة عليه، وربط ذلك بـــالواقع المشاهد.

تقسيم البحث:

هذا وقد اقتضت الكتابة في هذا البحث أن أقسّمه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وقد بينتُ فيها سبب اختيار هذا الموضوع وأهميته ومنهجيّة البحث فيه.

الفصل الأول: تعريف الاصطفاء وأهميته، وعرضتُ فيه لأقوال أئمة اللغة في معنى الاصطفاء والألفاظ القريبة منه (الاجتباء والتكريم والاختيار والتفضيل والإخلاص)، وذكرت أهمية الاصطفاء، فكان هذا الفصل في مبحثين:

المبحث الأول: الاصطفاء لغة والألفاظ القريبة في المعنى منه.

المبحث الثاني: أهمية الاصطفاء.

الفصل الثاني: الاصطفاء المتعلق بالإنسان، ويتضمن الحديث عن أهم مجال من مجالات الاصطفاء، وهو اصطفاء الإنسان، لذلك كان أطول فصول الرسالة، لأهميته البالغة ومباحثه المتعددة، وقد اشتمل على ستة مباحث:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الأول: اصطفاء الإنسان من حيث إنسانيته.

المبحث الثاني: اصطفاء الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الثالث: نماذج قرآنية في اصطفاء الرسل والأنبياء.

المبحث الرابع: اصطفاء الدين للناس.

المبحث الخامس: اصطفاء الأمم.

المبحث السادس: اصطفاء الشهداء.

الفصل الثالث: اصطفاء الملائكة، وتحدّثت فيه عن اصطفاء الله للملائكة الكرام، مبيناً مكانتهم عند بارئهم، وموضحاً بعض وظائفهم ومراتبهم، وقد اشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: اصطفاء الملائكة بشكل عام.

المبحث الثاني: بعض أصناف الملائكة المصطفاة.

الفصل الرابع: اصطفاء الزمان والمكان، وذكرتُ فيه ما أشارت إليه الآيات القرآنية من اصطفاء بعض الأزمنة والأمكنة، كشهر رمضان، وليلة القدر، ويوم الجمعة، ومكة والأرض المباركة، وقد اشتمل على المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: اصطفاء الزمان.

المبحث الثاني: اصطفاء المكان.

الفصل الخامس: سبب الاصطفاء وآثاره، وقد اشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: سبب الاصطفاء.

المبحث الثاني: الآثار المترتبة على الاصطفاء.

الخاتمة: وقد ضمَّنتُها أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث.

ولا أدّعي في هذا كلّه أنني قد وفّيتُ الموضوع حقّه أو سبرت أغواره، ولكني بذلت غاية جهدي في جمع مادة هذا البحث وتنسيق كتابته، فما كان من صواب فمن الله وحده، وله الفضل والمنّة، وما كان من خطأ فمردّ ذلك بشريتي والكمال لله وحده، وأعوذ بالله أن أقول في كتابه ما ليس لي به علم، والله من وراء القصد.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الأول

تعريف الاصطفاء وأهميته

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الأول
الاصطفاء لغة والألفاظ القريبة في المعنى منه

المطلب الأول: الاصطفاء في اللغة

القُرآن الكريم كلام عربي مبين، فلا بد عند تناول كلمة من كلماته إنْ موضوعياً وإنْ تحليلياً من الرجوع إلى معاجم اللغة وكتب العربية لتكشف لنا عما قصدته العَرَب بتلك اللفظة، وقد رجعتُ في معنى الاصطفاء إلى أمهات كتب اللغة العربية، وإليك بيان ذلك:

أولاً: معنى الاصطفاء عند ابن فارس:

قال ابن فارس في كتابه ((مقاييس اللغة)):

"الصاد والفاء والحرف المعتل أصل واحد يدلّ على خلوص من كل شَوْب. من ذلك الصَّفاء، وهو ضدّ الكدَر، يقال: صَفا يصفو إذا خلص، ويقال: لك صَفْو هذا الأمر وصِفْوته، ومحمد صفوة الله تعالى وخيرته من خَلْقه، ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، والصَّفِيّ. ما اصطفاه الإمام من المغنَم لنفسه، وقد يُسمّى بالهاء (الصفيّة)، والجمع الصَّفايا".[1]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

"والصفية والصفي، وهو بغير الهاء أشهر: الناقة الكثيرة اللبن، والنخلة الكثيرة الحَمْل، والجمع الصفايا، وإنما سُمِّيت صفيّاً لأن صاحبها يصطفيها.

ومن الباب قولهم: أصفت الدجاجة -إذا انقطع بيضها- إصفاءً، وذلك كأنها صَفَت أي خلصت من البيض، ثم جُعِل ذلك على أَفْعَلَتْ فرقاً بينها وبين سائر ما في بابها، وشُبّه بذلك الشاعر إذا انقطع شِعْره.

ومن الباب الصفا: وهو الحَجَر الأملس، وهو الصَّفْوان، الواحدة صفوانة، وسُميت صفوانة لذلك لأنها تصفو من الطّين والرّمل".[2]

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢/١١.

(٢) المرجع السابق.

نلحظ أن ابن فارس –رحمه الله– بيَّنَ أن الجذر (صفو) يأتي بمعنى الخلوص من كل شَوب، أي أنه ضد الكَدَر. ومن ذلك إصفاء الدجاجة وهو انقطاع بيضها، وإصفاء الشاعر وهو انقطاع شِعره، وإصفاء الحجر وهو خُلوصه من الطِّين والرَّمل.

ثم يبين –رحمه الله– أن الاصطفاء هو الاختيار، ولذا يقال للناقة الكثيرة اللبن والنخلة الكثيرة الحمْل صفيٌّ لأن صاحبها يصطفيها ويختارها من سائر جنسها، وهُنا يُلحظ أن الأصل اللغوي الذي هو بمعنى الخلوّ من الشوب متحقق في معنى المصطفى؛ ذلك أن اصطفاء النخلة الكثيرة الحمل أو الناقة الكثيرة اللبن مبني على الخلوّ من الشَّوب الموجود في غيرهما. والمصطفِي هنا لا يختار إلا أجود النخل وأجوَد النُّوق.

ثانياً: معناه عند أبي منصور الأزهري:

نقل الأزهريّ في كتابه: «تهذيب اللغة» عن الليث في معنى الاصطفاء، فقال:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

"قال الليث: الصفو: نقيض الكدَر، وصفوة كل شيء: خالصه من صَفْوة المال، وصفوة الإخاء.

وقال الليث: الصفاء: مصافاة المودة والإخاء. والصَّفو أيضاً: مصدر الشيء الصافي.

قال: وإذا أخَذ صفو ماءٍ من غديرٍ، قال: استصفيتُ صفوةً".(١)

ثم قال الأزهريُّ –رحمه الله–: "والاصطفاء الاختيار، افتعال من الصفوة، ومنه النبي المصطفى، والأنبياء المصطَفَون. وهم من المصطَفَين: إذا اختيروا، وهم المصطفُون: إذا اختاروا، هذا بضم الفاء.

وصَفِيُّ الإنسانِ أخوه الذي يصافيه الإخاء ويقال: أصفيتُ فلاناً بكذا وكذا: أي آثرته به".(٢)

ونلحظ في كلام أبي منصور الأزهري –رحمه الله– ما يلي:

---

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، ١٢/٢٤٨– ٢٤٩.

(٢) المرجع السابق.

١- أن الصفاء يكون في المحسوسات والمعنويات:

فمن الصفاء المعنوي: مصافاة المودة والإخاء، ومنه سمي "صفي الإنسان" وهو الذي يصافيه المودة والإخاء.

ومن الصفاء المحسوس: صفاء الشراب واستصفاء صفوة من الغدير، وصفوة المال... وهكذا.

٢- أن الاصطفاء هو الاختيار، والاصطفاء إخلاص الشيء من الكدر، وتنقيته منه، ومنه النبي المصطفى والأنبياء المصطفون.

ثالثا: معناه عند الراغب:

بين الراغب -رحمه الله- معنى الصفاء ومشتقاته كابن فارس والأزهري، ولكنه زاد عليهما تبيانا بقوله:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

"والاصطفاء تناول صفو الشيء كما أن الاختيار تناول خيره والاجتباء تناول جبايته، واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيا عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعر ذلك من الأول. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحج:٧٥]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا ﴾ [آل عمران:٣٣]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، ﴿ ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٧]، واصطفيت كذا على كذا أي اخترته. ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٣]، ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] ، ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾ [فاطر: ٣٢] والصفي والصفية ما يصطفيه الرئيس لنفسه"[١].

---

(١) الراغب، المفردات، ص٤٨٧.

نلاحظ أنّ الراغب –رحمه الله– جاء بأصل معنى الاصطفاء ثم جمع استعمال القرآن لهذه اللفظة، فتحصل له أمور:

١– أن أصل الصفاء يدلّ على خلوص الشيء من الشوب.

٢– أنه يجيء في آيات الكتاب العزيز على قسمين: إمّا أن يكون في غير المصطفى شوب، وإما أن لا يكون.

فإنْ كان في غير المصطفى شوب، فإن اصطفاء الله له يكون بإيجاده صافياً من الشوب الموجود في غيره، كاصطفاء الله رسلاً من الناس.

وإن لم يكن في غير المصطفى شوب، فإن اصطفاء الله له يكون باختياره واجتبائه، من غير وجود شوب فيه ولا في غيره من جنسه، كاصطفاء الله رسلاً من الملائكة، فإن الملائكة كلهم كرام بررة، ومع ذلك فالله سبحانه يصطفي منهم رسُلاً.

والحق أن الراغب –رحمه الله– هو من أول من ربط بين المعنى اللغوي الأصلي واستعمال القرآن لهذا المعنى، وهو ربط دقيق يكشف عن قوة ملاحظة الراغب.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

رابعاً: تعريفه عند ابن منظور:

يبين ابن منظور –رحمه الله– أن الصِّفوة، بالكسر: خيار الشيء وخُلاصته وما صفا منه، فإذا حذفت الهاء فتحت الصاد.

وإذا أَخَذَ صفْو ماءٍ من غدير قال: استصفيتُ صفوة وصفوت القدر إذا أخذتُ صَفْوَها.

والصوافي: هي الأملاك والأرض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها، واحدتها صافية. واستصفى صفوة الشي: أخذه. وصفا الشيءَ: أخذ صفوه.(١)

ثم قال ابن منظور –رحمه الله–: "والاصطفاء: الاختيار، افتعال من الصفوة. ومنه النبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّم: صفوة الله من خَلْقه ومصطفاه، والأنبياء المصطَفون، وهم مِنَ المصطَفين إذا

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٥٤/٤.

اختيروا، وهم المصطفَون إذا اختاروا، وهذا بضم الفاء، وصفيُّ الإنسان: أخوه الـــذي يصافيــه الإخاء.

والصفي: المصافي. وأصفيته الود: أخلصته وصافيته. وتصافينا: تخالصنا: وصافى الرجلَ: صدقه الإخاء. والصفي: الخالص من كل شيء. واصطفاه: أخذه صفياً".(١)

نلاحظ أن ابن منظور -رحمه الله- بين ما يلي:

١- أن (الصفو) يستعمل في المحسوسات والمعنويات كما هو الحال عند أبي منصور الأزهري.

٢- أن الاصطفاء بمعنى الاختيار والاستخلاص وتناول صافي الشيء.

خامساً: تعريفه عند السَّمين الحلبي:

قال السمين الحلبي -رحمه الله-: "قوله تعـالى: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥] أي خالص مما يشوبه. والصفو: الخلوص، ومنه الاصطفاء -افتعال من الصفـو- وهـو تناول صفو الشيء، كالاختيار: تناول خيره، والاجتباء تناول جبايته.

وصفيُّ الغنم: ما يصطفيه الإمام لنفسه فيخلص له"(٢).

"واليوم الصفوان: الصافي الشمس، الشديد البَرد، وأصفى الحافر: بلـغ الصفـا (أي الحجر)، كقولهم: أكدى أي بلغ كدية.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٥]. قيـل: اصطفاؤه تعالى لبعض عباده قد يكون بإيجاده صافياً من الشوب الموجود في غيره. وقد يكـون باختياره وحكمه وإن لم يتعرّ ذلك من الأول. ويُقال للناقة أو الشاة الغزيرة اللبـن وللنخلـة الكثيرة الحمل صفيّة. وبنو فلان مُصْفُون: أي لهم صفايا من ذلك.

قوله تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٣]. هذا إنكار عليهم، قالوا: الملائكة بنات الله؛ يقول: أختارَ أخسَّ النوعين عندكم وخصَّكم بأشرفها؟"(١).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) السمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ، ٢/٤٠٠.

نلحظُ أنّ السَّمين الحلبي -رحمه الله- يحاول الرَّبط بين المعنى اللغوي واستعمال القرآن للجذر (صفو)، كما هو الحال عند الراغب.

وهو يضيف ألفاظاً أخرى قريبة من معنى الاصطفاء، كالاجتباء: وهو تناول جَباية الشيء، والاختيار: وهو تناول خيره، كما فعل الراغب.

سادساً: معناه عند أبي البقاء:(٢)

قال أبو البقاء -رحِمه الله-: "الاصطفاء في الأصل تناول صفوة الشيء، كما أنّ الاختيار تناول خيره.

والاجتباء: تناول جَبايته أي وسَطه، وهو المختار.

واصطفاء آدم النبي على العالم بأن رجّحه على جميع الملائكة، واصطفاء نوح عليه الصلاة والسلام على العالم بأنْ أهلكَ قومه وحفظ نوحاً وأتباعه.

واصطفاء آل إبراهيم على العالَم بأن جعل دينهم شائعاً وذلَّل مخالفيهم.

واصطفاء موسى وهارون على العالم بأن جعل فرعون مع عظمته وغلَبة جنوده مغلوباً.

واصطفاء محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم على جميع المكونات بأن جعله حبيباً ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

والخالص: هو ما زال عنه شوبه بعدما كان فيه، والصافي: يقال لما لا شوب فيه".(٣)

نلاحظ على كلام أبي البَقاء -رحمه الله- ما يلي:

١- أنه بيّن أصل معنى الاصطفاء وهو تناول صفْو الشيء. وهو كالاختيار والاجتباء.

جميع الحقوق محفوظة
مركز إيداع الرسائل الجامعية

---

(١) المرجع السابق.

(٢) هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي الحنفي القاضي، وُلد في (كفا) بالقرم سنة ١٠٢٨هـ، وتوفي بها سنة ١٠٩٤هـ. كان فاضلاً في علوم شتى. أتقن اللغتين: العربية والتركية. انظر: الزركلي، الأعلام، ١٨٣/١. كحالة، معجم المؤلفين، ٣١/٣. البابابي، إيضاح المكنون، ٢٥١/١، ٣٨٠/٢.

(٣) أبو البقاء، الكليات، ص١٣٠.

٢- أنه بين وجه اصطفاء بعض الأنبياء والرُّسل، كاصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم وموسى وهارون ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. ولكن هناك أوجه أُخرى في بيان وجه اصطفائهم، وسيأتي مزيد توضيح لها في مقالها عند الحديث عن اصطفاء الأنبياء والرُّسل في الفصل الثاني إن شاء الله.

وبعد هذا التطواف السريع في معاجم اللغة، فإنه يستخلص في معنى الاصطفاء الأمور التالية:

أولاً: الصاد والفاء والحَرف المعتلّ: أصل واحد يدلّ على خلوص من كل شوب، وصفوة كل شيء خالصه وخياره. والصفو: الخالص من كل شيء.

ثانياً: الاصطفاء هو افتعال من الصفو ويعني تناول صفو الشيء وهو خالصه وخياره. والمصطفى خال من الشوائب وهو كثير الخير.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثالثاً: اصطفاء الشيء على قسمين:

١- قد يكون بإيجاده صافياً عن الشوب الموجود في غيره.

٢- وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعرّ ذلك من الأول.

فمثال إيجاد الشيء صافياً عن الشوب الموجود في غيره قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص: ٤٧] فهو إيجاد من الله للمخلوق صافياً من الشوب الموجود في غيره.

والمثال الثاني قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ [الحج: ٧٥] فالملائكة كلهم صافُون عن الشوب ومع هذا فالله يصطفي منهم رسلاً، بحكمته ووفق علمه سبحانه.

المطلب الثاني: الاصطفاء واشتقاقاته في القرآن الكريم

وردت اشتقاقات مادة (صَفو) في القرآن ثماني عشرة مرة:

أولاً: ألفاظ جاءت مشتركة في الجذر اللغوي (صَفو) بوزن (فَعَل):

أ- لفظة (أصْفى) بوزن (أفْعَل) وردت مرتين في سورتين مكيتين:

١- قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزخرف: ١٦].

٢- وقال سبحانه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٠].

فكلمة (أصفى بـ) كما مرّ، تعني الإيثار أو الاختصاص، أي: أخصّكم ربكم أو أختار لكم ربكم البنين، واتخذ البنات؟؟ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ب) ألفاظ أخرى تشترك في نفس الجذر (صفو) وهي (مصفى، الصفا، صفوان):

١- قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد: ١٥].

٢- قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

٣- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فالألفاظ الثلاثة: مصفّى، وصفوان، الصفا، تشترك مع الاصطفاء في الجذر وهو (صفو)، وقد سبق في إيراد أقوال العلماء عند التعريف اللغوي للاصطفاء[1]، أن المصفّى هو الذي خلص من الشوائب، والصفا: هو الحجر الأملس وهو الصفوان، والصفوان اسم جمع واحده صفوانة، وسمي الحجر الأملس "صفا" لأنه يخلو من الطّين والرّمل.

ثانياً: لفظة (اصطفى) بوزن (افْتَعَلَ) ومشتقاتها، وردت ثلاث عشرة مرة؛ ست مرات في السور المكية وسبعاً في السُّوَر المدنية:

١- قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٢- وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

جميع الحقوق محفوظة

٣- قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

٤- قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

٦- قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

---

(١) انظر الصفحات ٢ و ٥ و ٦ من هذه الرسالة.

٧- قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج: ٧٥].

٨- قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل: ٥٩].

٩- قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢].

١٠- قال تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٣].

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص: ٤٧].

١٢- قال تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ومن لطائف هذه الآيات:

١- أن المعنى اللغوي للاصطفاء وهو تناول صفو الشيء متحقق فيها، وأنها جميعاً لم تخرج عن أصل معنى الاصطفاء وهو الاختيار والاستخلاص.

٢- أن المصطفى في هذه الآيات إما أن يكون خالياً من الشوائب الموجودة في غيره كاصطفاء الرسل والأنبياء، أو أن الله سبحانه اصطفاه من غير وجود شوائب في غيره من جنسه، كاصطفاء الله رُسلاً من الملائكة.

٣- أن الاصطفاء في هذه الآيات إما أن يكون اصطفاءً لشيء محسوس كاصطفاء الرسل والأنبياء، وإما أن يكون اصطفاء لشيء معنوي كاصطفاء الدِّين.

٤- أن الاصطفاء جاء في كل الآيات الثلاث عشر الماضية بصيغة الماضي إلا في موضعين:

أ- في سورة الحج وردَ بصيغة المضارع (يصطفي).

ب- في سورة ص ورد بصيغة اسم المفعول (المصطفين).

إن آية سورة الحج تعرض لقاعدة الاصطفاء للرسل والأنبياء، ذلك أن الله عز وجل تابع إرسال الرسل والأنبياء لكل أمة من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلّم ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وإرسال الله للرسل لم ينقطع أبداً، لذلك ناسب هذا أن يأتي الفعل في الآية مضارعاً ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

[الحج: ٧٥].(١)

أما آية سورة ص فإنها تقرر حقيقة ثابتة لا تتغير على مدى الأزمان وهي أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب من عِباد الله المصطفين الأخيار الذين ثبتت لهم صِفة الاصطفاء الرباني، لذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص: ٤٧]، فصيغة الماضي لإعلامنا بالاصطفاء، وآية الحج لإعلامنا بسُنة الله في الاصطفاء وأنّ الرسل والأنبياء لم ينقطعوا عن البشر، وآية ص لإعلامنا بصفة مدح إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأن الاصطفاء صفة راسخة فيهم.

٥- أن الاصطفاء إنما يكون في الدنيا، وتمتد آثاره إلى الآخرة فيكون الأجر عظيماً على الاصطفاء، وقد نصّت إحدى هذه الآيات على أن الاصطفاء في الدنيا، وهذه الآية هي قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٦- أن الآيات جميعاً نسبت فعل الاصطفاء إلى الله عز وجل، ومن هنا فإنني في الحديث عن الألفاظ القريبة المعنى من الاصطفاء، سأقتصر منها على ما كان منسوباً إلى الله عز وجل.

المطلب الثالث: الألفاظ القريبة في المعنى من الاصطفاء

لا بد من التنبّه أولاً إلى أنه لا ترادُف في كتاب الله، ولا كذلك في اللغة، بل إن لكل لفظ معنىً خاصاً به، وإن اشترك مع غيره في أصل المعنى، فالاصطفاء غير الاجتباء وهو غير

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٤٤/١٧.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

التفضيل وهما غير الاختيار والإخلاص، وإن اشتركت هذه الألفاظ كلها في أصل المعنى، وهو الاختيار والاستخلاص.

وعليه فمن الألفاظ القرآنية الأخرى الدالة على الاختيار والاستخلاص: الاجتباء والاختيار والتفضيل والتكريم والإخلاص.

١- الاجتباء: تناول جباية الشيء أي وسطه على طريق الاصطفاء.(١)

٢- الاختيار: تناول خير الشيء.(٢)

٣- التفضيل: تفعيل من الفضل، وهو الزيادة في الشيء والتفضيل على ثلاثة أضرب:

أولاً: تفضيل من حيث الجنس كتفضيل جنس الحيوان على جنس النبات.

ثانياً: وتفضيل من حيث النوع، كتفضيل الإنسان على غيره، وهذان القسمان جوهريان لا سبيل للناقص فيهما أن يزيل نقصه.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

ثالثاً: وتفضيل من حيث الذات يوجد السبيل إلى إكتسابه كتفضيل إنسان على آخر.(٣)

٤- الإخلاص: جعل الشيء خالصاً لا شوب فيه(٤) ومنه سُمّي التوحيد إخلاصاً لأنه تصفية خضوع العبد لله وحده، ومنه إخلاص الله بعض عباده أي اصطفاؤه لهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

---

(١) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٢٥٨/١. أبا البقاء، الكليات، ص٤٩. الراغب، المفردات، ص٨٧. ابن منظور، لسان العرب، ٣٧٣/١. السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ٣٥٢/١.

(٢) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣٨٦/٢. أبا البقاء، الكليات، ص٦٢. الراغب، المفردات، ص١٦٠-١٦١. ابن منظور، لسان العرب، ٣٣٥/٢. السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ٣٦٠/١.

(٣) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣٥٧/٢. أبا البقاء، الكليات، ص٦٨٤. الراغب، المفردات، ص٣٨١-٣٨٢. ابن منظور، لسان العرَب، ١٣٨/٥. السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ٢٨١/٣-٢٨٢.

(٤) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٣٧٣/١. الراغب، المفردات، ص١٥٤-١٥٥. ابن منظور، لسان العرَب، ٢٩٤/٢. السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ٥٩٩/١.

٥- التكريم: الإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان إكرام أي نفع لا يلحقه فيه غضاضة أو أن يُجعل ما يوصل إليه شيئاً كريماً أي شريفاً.(١)

وهكذا فإننا نجد أن هذه الألفاظ متقاربة المعاني وتوضح بعضها البعض، وكلها تدور حول معنى واحد هو الاختيار والاستخلاص.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(١) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ٤٤٠/٢. أبا البقاء، الكليات، ص٣٥٣ و٧٧٢. الراغب، المفردات، ص٤٢٩. ابن منظور، لسان العرب، ٣٩٥/٥. السمين الحلبي، عُمدة الحفاظ، ٤٥٥/٣.

المبحث الثاني
أهميـــة الاصطفـــاء

لا يمكن تصوُّر حقيقة الاصطفاء إلا باستحضار عظمة المصطفي وهو الله جلّت قدرتـــه الذي خلق كلّ شيء بقدَر، وخفَض من شاء بقدَر، ورفَع من شاء بقَدَر، وكذلك يصطفي مـن يشاء بقدَر، يختاره ويجتبيه وِفق علمه، ويمدّه بقوة من قوّته، وبنورٍ من نوره، وبهدى من هداه.

وإذا كان الله قد خلق السماوات والأرض وما فيهما وسخرهما للإنسان فلا غَــــرْوَ أن يكون أجلّ اصطفاءاته سبحانه أن اصطفى هذا الإنسان على كثير من خلْقه. كرّمه بخلقته على تلك الهيئة، وبهذه الفِطرة التي تجمع بين الطّين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلــك الكيان!

وكرّمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتي استأهل بها الخلافة، يغير فيها ويبـــدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وكرّمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعوْن القوى الكونية في الكواكـب والأفلاك.

وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسـجد فيه الملائكة ويعلن الخالق جلّ شأنه تكريم هذا الإنسان!

وكرّمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزّل من الملأ الأعلـــى البـــاقي في الأرض.. القرآن.

وكرّمه بأن جعله قيّماً على نفسه، محتمِلاً تبعة اتجاهه وعمله. فهذه هي الصِّفَــــة الأولى التي بها كان الإنسان إنساناً. حُرية الاتجاه وفرديّة التبعية. وبها استُخلِف في دار العمل.[1]

وكان من تمام النِّعمة، أن الله اصطفى لهذه البشرية دينـــاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، "فهو من اختيار الله، فلا اختيار لهم بعـــده ولا

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظّلال، ٢٢٤١/٤.

اتجاه. وأقل ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه والحرص على ما اختاره لهم، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم".[١]

ولقد تفيأت البشرية ظلال هذا الاصطفاء وعاشت في نور الحق ردحا من الزمن موحدة لربها منسجمة مع كونها حتى إذا اجتالتها الشياطين، وزاغت عن هدى ربها، وانحرفت عن الجادة، اصطفى الله منها ثلة تعود بالناس إلى فطرتهم، وتردهم من تيههم وضلالهم إلى مشربهم العذب ليرتووا منه، وينهلوا من معينه الصافي.

وجعل أعلى هؤلاء المصطفين شأوا، وأرفعهم مقاما، رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء.

ومن تمام اصطفائه عليه الصلاة والسلام أن جعل أمته خاتمة الأمم وخيرها، لتنشئ في الأرض طريقها على منهج الله وحده، متميزة ظاهرة منفردة، ولترسم التصور الصحيح في العقيدة، التصور الصحيح في الأخلاق والقيم، التصور الصحيح في النظم والمعاملات، كل هذه وهي تغرف من نبع واحد، النبع الذي أعطاها هذه الخيرية، النبع الرباني، فلا حقيقة لهذه الأمة ولا كيان، ولا نظام ولا عزة إن خالفت في هذا النبع، وأخذت تغرف من كل نبع آسن.

ولا تتحقق قيادتها للبشرية، القيادة التي أرادها الله لها، القيادة في جميع شؤون الحياة صغيرها وكبيرها.. إلا بورودها هذا الحوض والارتواء من معينه.

وما تخلف المسلمون إلا بعد أن تلقوا مناهجهم عن غيرهم.. فنزلوا من العلو إلى السفل، ومن القيادة إلى التبعية، يقول سيد –رحمه الله–: "فأما نحن الذين نزعم أننا مسلمون، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآننا وحديث نبينا –صلى الله عليه وسلم– عن المستشرقين وتلامذة المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء، ومن الفلاسفة والمفكرين: الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من تلك المصادر المدخولة! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من

---

(١) قطب، سيد، الظلال، ١١٦/١.

ذلك المستنقع الآسن، الذي انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين -أي دين- ثم نزعم -والله- أننا مسلمون! وهو زعم إثمه أثقل من إثم الكفر الصريح. فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسخ. حيث لا يشهد عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون -مثلنا- أنهم مسلمون!.

إن الإسلام منهج. وهو منهج ذو خصائص متميزة من ناحية التصور الاعتقادي، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها. ومن ناحية القواعد الأخلاقية، التي تقوم عليها هذه الارتباطات، ولا تفارقها، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية. وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها. فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية، ومما يتناقض مع طبيعة القيادة -كما أسلفنا- أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي...

ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء، ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم. وغدا. بل الأمر اليوم ألزم، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني. وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي، الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى".(١)

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وعلى هذه الثلة المؤمنة أن تعي أنها مصطفاة وأن دينها ومنهجها مصطفى، وأن كتابها مجتبى، وأن رسولها هو خير الرسل -صلوات الله عليهم أجمعين- وهذا يشعرها بكرامتها على المولى عز وجل، والكرامة تحتاج إلى شكر المكرم. فعلى هذه الأمة المسلمة أن تقوم بواجبها نحو مصطفيها شكرا له على نعمه التي لا تعد ولا تحصى... وعليها أن تكون على قدر هذه الخيرية لتكون قائدة للأمم، ومنارا للسبيل... فهل تعي هذه الحقيقة الأمة المصطفاة؟؟

---

(١) قطب، سيد، الظلال، ١/ ٤٤٠.

لذلك كان للاصطفاء أهمية عظيمة:

أولا: إنه يبين للإنسان موقعه الصحيح في سلم المخلوقات، فيتضح للإنسان مكانته عند بارئه وخالقه. ومن خلال موقع الإنسان هذا تتبين الوظيفة التي اصطفى الله من أجلها الإنسان، إنما وظيفة تحقيق العبودية لله عز وجل.

إن الإنسان مخلوق اصطفاه الله تعالى، واصطفاؤه هذا لا بد أن يقف به عند الغاية من وجوده وهي تحقيق العبودية لله في هذا الكون، فإن قام بهذا كان الإنسان مصطفى مكرما عند الله، وإن لم يفعل ذلك نزل وهبط إلى أسفل سافلين.

ثانيا: إن الاصطفاء يضع المخلوقات في أماكنها المقدرة عند الله، فليس المصطفى كغيره من المخلوقات، لذلك تبوأ الرسل والأنبياء منزلة رفيعة، عالية، تشرئب إليها الأعناق، وتهفو إليها القلوب، لا سيما وهم يحلون في أعلى قمم العلياء.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وهذه المنزلة العظيمة للأنبياء والرسل توجب على غيرهم إنزالهم منزلتهم، وأن يعرف قدره مع قدرهم فيقتفي أثرهم، ويسير على منهجهم، ويتفانى في إبلاغ دعوتهم إلى الناس.

ثالثا: إن مرتبة الاصطفاء الإلهي، مرتبة تمايز بين المجتمعات، فعلى أساس الاختيار والاصطفاء الإلهي ترتفع أمة على الأمم، وعلى أساسه تهبط الأمم وتنحط.

إن أفضل الأمم وخيرها هي الأمة التي اصطفاها الله جل وعلا، وقامت بوظيفتها تجاه الرحمن، وحققت الغاية من وجود الإنسان، عندئذ تركب هذه الأمة الطائعة مركب القيادة للبشرية، وتقودها بمنهج المصطفي نحو بر الأمان.

رابعا: إن مرتبة الاصطفاء لا تضم فقط الجانب الإنساني، وإنما يحل فيها الملائكة وبعض الأزمنة والأمكنة، على ما سيأتي من خلال فصول الرسالة، لذلك وجب على الإنسان أن ينزل المخلوقات المصطفاة من غيره منازلهم وأن يضعهم في الموضع الذي اختاره الله لهم، فيشترك الجميع عندئذ في تحقيق الوظيفة والغاية من الوجود، عبادة الله وحده لا شريك له، وبذلك ينجو الجميع من عقاب الله الذي يشمل ويعم كل عاص لله.

الفصل الثاني
الاصطفاء المتعلق بالإنسان

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تمهيد

بعد أن تبين لنا في الفصل الماضي معنى الاصطفاء في اللغة، وأهم الألفاظ القريبة لـــه في المعنى، نأتي الآن إلى مجال مهم من مجالات الاصطفاء، وهو اصطفاء هذا المخلوق: الإنسان.

ذلك أن الإنسان جعله الله خليفة في هذا الكون، وأناط به عمارته، وسلّمه أمور القيادة للمخلوقات الأخرى، وميّزه بأمور عظيمة، تجعل هذا المخلوق في مقدمة المخلوقات، وترفعه إلى مكان عال تشرئب إليه الأعناق، وتهفو إليه القلوب.

فقد اصطفى الله هذا الإنسان من حيث هو إنسان ثم رفع منـزلته بأن اصطفى له مـن جنسه رسلاً، ثم قربه أكثر فأكثر بأن اختار له كيفية عبادته لخالقه... هذه الكيفية المتمثلة في الدين الذي جاءت به الرسل لكل الأمم، فضيعت تلك الأمم ذلك الدين حتى عهد الله به إلى أشرف الأمم وآخرها، أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فجعلها خير أمة أخرجت للناس.

وأخيراً فقد اصطفى الله أناساً قدموا شهادة لهذا الدين بأعز ما يملكون: بدمهم وحياتهم، أولئك هم الشهداء، جعلنا الله منهم.

وقد تضمن هذا الفصل المباحث الآتية:

المبحث الأول: اصطفاء الإنسان من حيث إنسانيته.

المبحث الثاني: اصطفاء الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الثالث: نماذج قرآنية في اصطفاء الرسل والأنبياء.

المبحث الرابع: اصطفاء الدين للناس.

المبحث الخامس: اصطفاء الأمم.

المبحث السادس: اصطفاء الشهداء.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

المبحث الأول
اصطفاء الإنسان من حيث إنسانيته

لقد كرَّم الله الإنسان، وميّزه من باقي المخلوقات وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ومن أهم هذه النعم أن الله اصطفاه من حيث هو إنسان، وآيات القرآن زاخرة بهذا المعنى، ولكننا سنأخذ مثالاً على اصطفاء الإنسان من خلال الآية الكريمة في سورة الإسراء التي تنطق صراحة بهذا المفهوم، قال سبحانه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

إن نعم الله عز وجل على هذا المخلوق، نعم جليلة عظيمة، لا تُعَدّ ولا تُحصى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وإن الإنسان لتتراءى له كل يوم آلاء ربه بما تكشّف له من حقائق عن نفسه وعن الكون.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(ولقد كرمنا بني آدم) وهذا التكريم أكبر مظاهر الاصطفاء، وأجلّ النعم التي أسبغ الله بها على بني آدم.

كرّمهم –كلهم بَرّهم وفاجرهم– بالخلقة على أحسن هيئة[1] ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٧].

وكرّمهم بهذا العقل وأسلحته الفعالة: السمع والبصر... وما ينتج عنه من تفكير، هذا العقل الذي يصول ويجول في الكون فيعرف منافع الأمور ومضارها، وخواصها وأسرارها وخباياها.. ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] هذا العقل الذي هو أساس العلم، العلم الذي توّج الله به هذا المخلوق: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥].

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٧٢/٣.

وشرّفهم بهذه النفخة التي وهبهم الله إياها، فسمَت بهم وحلّقت فجمعت بين الأرض والسماء في ذلك الكيان ﴿...وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧-٩].

وبناء على هذين العنصرين: العقل والروح، جعل الإنسان مكلفا وكانت حياته اختباراً وابتلاءً، ولكن هذا التكليف لم يكن إجباراً من الخالق سبحانه، وإنما أعطاه الحريّة، الحرية المسهلة أيّاً ما كان اختياره، فلا يحمله عليه كرهاً ولا يجبره، ولكن يسهل له سلوك ما يختار من سبيل:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

وهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانا، حرية الاتجاه وفردية التبعية... قيماً على نفسه محتملا تبعة اتجاهه وعمله، وبهذه الصفة استخلف في دار العمل[١].

وكرّم الإنسان بأن جعله خليفة في هذه المعمورة، يغيّر فيها ويبدّل، ويعمر فيها ويبني، كل ذلك بما يوافق إرادة المستخلف وشرعية الخلافة... ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩].

وكرّمه بذلك الاستقبال العظيم الذي جعله له عند خلقه، فأسجد له ملائكته العظام ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣﴾ [ص: ٧١-٧٣].

وكرّمه بأن جعله قادراً على التعبير عن علمه وأفكاره ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٣-٤].

554961

وكرّمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض...

(١) قطب، سيد، الظلال ، ٤/٢٢٤١ بتصرّف.

القرآن[١] ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ وهذا مظهر آخر من مظاهر الاصطفاء، ونعمة أخرى من نعم الله على بني آدم...

فقد سخَّر الله الكون للإنسان -من جبال وبحار وكواكب ونجوم- حتى يسير في هذا الكون، فيستخرج ويستنبط نواميسه والقوانين التي يسير عليها، فيتعايش مع الوجود ويقوده إلى الخير بحكم خلافته التي قدرها الله له.[٢]

وصلة الإنسان بهذا الكون تتحدد باتجاهين -كما ذكر الشيخ محمد المبارك-[٣]:

اتجاه استثمار لمنافعه ومصالحه، واتجاه تأمل وتفكر في هذا الكون؛ أما الاتجاه الأول فيظهر من خلال بعض الآيات ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾ [النحل: ٥-٧] هذه عن الأنعام. وقال سبحانه عن البحر وفوائده: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤ ﴾ [النحل: ١٤]. وقال سبحانه عن فوائد الماء: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ ﴾ [النحل: ١٠-١١].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنه ذلّل الأرض كاملة للإنسان فقال عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥ ﴾ [الملك: ١٥]، وليس هذا فحسب بل إن الله سبحانه سخر ما في السماوات وما في الأرض -بما فيهما من عجائب خلق الله- سخرها كلها لهذا الإنسان ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: حوى، الأساس، ٣١٠٣/٦.

(٣) انظر: المبارك، نظام الإسلام، ص٦٠.

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية: ١٣].

فيا لله! إن هذا الكون كله من حجارة وجبال وصحارى وبحار وطيور وكواكب ونجوم... تكون كلها مسخرة لهذا الإنسان(١)، لينتفع بها ويستثمرها لمصالحه، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وأما الاتجاه الثاني من علاقة الإنسان بالكون فهو: اتجاه التأمل والتفكر في هذا الكون..

فقد أرشد الله الإنسان للتفكر والتدبر في الوجود، وفتح عينيه على ما في نفسه وما حوله من مشاهد وآفاق، ليتعرف على موقعه من هذا الكون، وليتعرف على خالقه وخالق الوجود من خلال كتابه المنظور فقال سبحانه في كتابه المسطور: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ ﴾ [الروم: ٨].

من خلال هذين الاتجاهين تتضح علاقة الإنسان بالكون ويعرف صلته بنفسه وبغيره من المخلوقات وبخالق الكائنات الذي حملهم في البر والبحر.

﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ وهذه نعمة ثالثة تشير إليها الآية ومن خلالها يفرق بين الإنسان وغيره.

فإن الله سبحانه خلق هذا الإنسان، وأمره أن يأكل ويشرب ما كان طيّباً حتى يتميز من الحيوان وغيره من المخلوقات التي تشاركه صفة الأكل والشرب، لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي لا يأكل ولا يشرب إلا ما كان طيباً، هذا بالنسبة للإنسان السوي، فإن أكل الإنسان غير الطيب فإنه يكون خارجاً عن طَوْرِ إنسانيته، مشابهاً بذلك الحيوان.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فان هذه النعمة –نعمة الرزق الطيب– لا يعرفها جيداً إلا من فقدها؛ فإن الرزق الطيب قد يتوافر للإنسان ولكنه يُحرم منه بسبب المرض أو بسبب الفقر

---

(١) يقول العلامة: محمد المبارك –رحمه الله–: "يجب الانتباه بدقة إلى الفرق بين هذه النظرة القرآنية التي تجعل الكون وما فيه قابلاً لانتفاع الإنسان، مفتوح الآفاق لاستثماره –وهو معنى التذليل والتسخير– والنظرة الأخرى التي تجعل الكون وما فيه مخلوقاً في الأصل من أجل الإنسان ومنافعه حصراً، وهي المسماة في بعض اللغات الأوروبية بمركزية الإنسان". نظام الإسلام ص٦٠.

وقِلة الحيلة.. عندئذ يحس الإنسان بهذه النعمة العظيمة التي تستوجب كثيراً من الشكر لله عز وجل.

ولم يقف الأمر عند حدود التكريم والحمل في البر والبحر والرزق من الطيبات، بل تعداه إلى بيان موقع هذا الإنسان بين مخلوقات الله سبحانه: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ هناك خلاف حول أفضلية بني آدم على غيرهم: هل الإنسان أفضل من غيره على الإطلاق بما في ذلك الملائكة؟ أم أن هناك من يساويه أو يفوقه بالفضل؟ ولا يوجد نص صريح يقطع بالإجابة. وأمّا هذه الآية فهي لا تمنع وجود من يساويهم أو يفوقهم بالفضل، لأنها استعملت لفظ (كثير) ولم تستعمل غيره من الألفاظ ككل أو جميع مثلاً.(١)

ونكتفي هنا بما نصت عليه الآية، من أن الله سبحانه فضل بني آدم على كثير ممن خلق.

وقضية أخرى حول هذه الآية: هل التفضيل المذكور هنا هو التكريم المذكور أول الآية؟

الجواب بالنفي قطعاً، فالتكريم وارد على أساس النظرة إلى طبيعة الخصائص الذاتية التي خلقها الله في الإنسان، بعيداً عن تفضيله على غيره، إذ لا مانع من أن يكرم الله غيره بما أكرمه به أو بما يماثله في ذلك.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

أما التفضيل، فهو ناظر إلى المقارنة بين ما وهبه الله له وما وهبه لغيره لإثبات جانب الامتياز فيه، وبذلك كان أحدهما يكمل الآخر في المعنى، ولا يكتفي بتأكيده له(٢).

ولنتوقف قليلاً عند تكريم الإنسان من حيث إنسانيته:

يقول الدريني: إن الرَّحِم التي تربط البشر (الرابطة الإنسانية) منشؤها وحدة المصدر، فينبغي الالتزام بمقتضياها، والتي من أهمها الشعور بالأخوّة الإنسانية بين بني البشر لأنهم ينتمون لأب واحد وأم واحدة، فلا فرق بينهم على أساس الجنس أو اللون أو العرق أو النسب أو اللغة... وإنما أساس التفاضل بينهم عبادتهم لله تعالى وتقواهم له سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

---

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ٣٧٥/٧. ابن كثير، التفسير، ٧٢/٣ و ٧٣. أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ١٤٦/٤. الشيخ زاده، حاشية البيضاوي، ٤٠٩/٥، طنطاوي، التفسير الوسيط، ١٦٦/٨.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦٦/١٥. فضل الله، محمد، من وحي القرآن، ١٨٤/١٤.

خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣].

إذاً ظاهرة العنصرية أو العرقية مرفوضة لأنها تتنافى مع إنسانية الإنسان، وتتنافى مع وحدة النوع الإنساني التي نادى بها القرآن والتي تنقض الادعاء القائل: بأن ظاهرة التخلف أو التقدم في الأمة مردها نوعية (العنصر) الذي ينتمي إليه الإنسان، ذلك أن وحدة الفطرة الإنسانية تنقض ما اختلقته الفلسفات السياسية القديمة السابقة على الإسلام، والحديثة أيضاً، تلك التي جزّأت المفهوم الكلي الحق للإنسان العام، فجزأت بذلك حقوقه وانشطر بالتالي مفهوم العدل الدولي، بحيث أصبح مقصوراً على نوع من البشر مستقر في بعض دول العالم وقاراته دون بعض، فأثر بذلك على الاستقرار العالمي بجميع جوانبه (السياسية والاقتصادية والعلمية والأمنية...)، ففي الفلسفة اليونانية القديمة مثلاً، ساد مبدأ: (ما عدا اليونان برابرة) فبربرية ما عدا اليونان ناشئة من كونهم ليسوا من العرق اليوناني، وتمذهب الرومان بما هو أشدّ تطرفاً حيث أعلنوا أن: (أهل روما سادة وما حولها عبيد) حتى ولو كانوا من معدن الرومان أنفسهم، ولكن اتفق أنهم لم يولدوا في العاصمة (روما) خاصة...

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وقد تسرّب هذا الفكر الضالّ إلى أذهان الساسة والقادة في القرن العشرين، مما نشأ عنه اشتعال الحرب العالمية الثانية التي ذهب ضحيتها ما يقارب الأربعين مليوناً من البشر، ظُلماً واستعلاءً، وغطرسة وعدواناً، ودمرت معالم الحضارة الإنسانية، التي بذلت في سبيل تشييدها ثمرات العقول والجهود الجبارة.

ولا يزال هذا التمييز العنصري قائماً في الدول الكبرى ومجتمعاتها، بل هو أساس السياسة الدولية التي تسوس قارتي آسيا وأفريقيا إلى يومنا هذا(١).

فالأوروبيون المستعمرون –مثلاً– أبادوا أمماً كاملة وحلوا محلها، كما فعلوا بالهنود الحمر وغيرهم من السكان الأصليين لأمريكا، وكما فعلوا بالسكان الأصليين لأستراليا ونيوزلندا، فانقرض أصحاب هذه القارات الأصليين، وأُبيدوا عن بَكرة أبيهم.

---

(١) انظر: الدريني، فلسفة أصول البُعد السياسي، مجلة هدي الإسلام، ص١٧-١٩.

ولم يكتفوا بهذا، بل مازالوا ينظرون إلى الإنسان الأسود نظرة قاتمة تُفصح عن حِقد وغل دفين لهذا الإنسان، فتراهم يحرمونه من أهم حقوقه الإنسانية كحق الحياة مثلاً وحق التعليم وحق العيش الكريم(١).

وليس الإنسان الأسود فحسب من يجد هذه المعاملة ويلقى هذا الحقد، بل إن هذه النظرة متجهة نحو كل مسلم مهما كان أصله وموطنه... ولا أدلُّ على ذلك مِن المجازر الدموية التي تُقام للمسلمين كل يوم أمام أعين العالم الذي يقف ساكناً وكأن الأمر لا يعنيه فهو بجميع ملله لا ينظر للمسلمين إلا نظرة واحدة: نظرة الإرهابي أو الجشع أو الرجل المتخلف الذي يجري وراء شهوته، وهذا العالم هو نفسه أول من يهُبّ إذا قُتل شخص من غير المسلمين وهو نفسه أول من يهُبّ حمايةً للحيوان وينشئ جمعيات عالمية للمحافظة على الحيوانات... وهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً هو أن هذا العالم لا ينظر للمسلمين إلا انهم أدنى من هذه الحيوانات.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

بل تراه يتبجح في القول فيتحدث ليل نهار عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الطفل.. ولا ندري عن أي إنسان يتحدثون، وعن أي حقوق يتكلمون ؟؟

إن هذا الفكر الضال حول النظرة العنصرية بين الناس، زرع بذوره إبليس الملعون، عندما رأى نفسه أفضل من آدم -عليه السلام- فرفض أن يسجد له وعصى أمر الخالق سبحانه...

وبيّن الشيبي أن أهم من أسس لهذا الفِكر الضّال أبناء القردة والخنازير عندما جعلوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وعدّوا غيرهم من (الشعوبيين) أو (الأمميين) حميراً لهم يركبونهم حيث شاءوا فلم يراعوا في غيرهم إلاًّ ولا ذمة، خصوصاً إذا كان مسلماً.. وقد كان لهم الدَّور الكبير في النظرة العالمية للمسلمين في العصور الأخيرة(١).

---

(١) انظر: عبد الواحد، علي، حقوق الإنسان ، ص١٦.

(١) انظر: الشيبي، الصهيونية في الميزان، ص٦٤ و ص٧٠. الزعبي، محمد علي، الماسونية في العراء، ص١٦١. ظاظا، الشخصية الإسرائيلية، ص٣٥.

وللأسف الشديد فقد انتقلت هذه النظرة إلى المسلمين أنفسهم، فأصبحوا ينادون بقوميات مقيتة.. فهذا شاميّ وذاك حجازي، وهذا عراقي وذاك يمني، بل صاروا ينادون بقوميات داخل البلد الواحد، فهذا شمالي وذاك جنوبي... وكأن الإسلام آخر ما يفكر به هؤلاء.

إن الكرامة الآدمية التي أرسى دعائمها القرآن، لا تجيز أي إهانة أو تعدّ على حقوق الإنسان، فلا يصح سَنّ القوانين التي تهينه أو تخدش كرامته، ولا يصحّ أن يشارك في عمل – أي عمل– يجرح شخصيته.

وحقيقة أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا كان عبداً لله وحده، أمّا إذا عبَدَ غير الله – أيّاً كان معبوده– فإنه يهبط عن مستواه الذي بوّأه الله إياه، ولا أدلّ على صِدق هذا، من النظر إلى بعض الشعوب التي ضلّت عن منهج خالقها فاجتالتها الشياطين حتى عبدوا الحجلوة والأفلاك والكواكب والأشجار والحديد والحيوانات كالعجل والبقرة والأغنام والنمر[٢]، حتى وصل الأمر إلى الدرك الأسفل من الانحطاط عندما عبد بعضهم عضو التلقيح في الإنسان[٣] فسبحان الله رب العرش العظيم عمّا يشركون.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وعلى كل فإن الله سبحانه اصطفى الإنسان وفضّله على كثير من خلقه، ليتجه نحو هذا الكون بالعمارة وتحقيق الخلافة التي جعله الله لها، ولكن ليس للإنسان أن يكون خليفة لله من غير واسطة بينه وبين ربّه، تنقل إليه الأوامر العلوية فيكون على هدى ونور من ربه. أولئك هم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، الذين أفردت لهم المبحثين الآتيين.

المبحث الثاني
اصطفاء الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام

المطلب الأول: اصطفاء الرسل والأنبياء عامّة

لقد كرّم الله بني آدم وجعل من تمام تكريمهم أن اختار منهم ثلة اصطفاها لتقويم سلوك البشر وهدايتهم إلى خالقهم وبارئهم، هذه الثلة هي التي أنارت الطريق للبشرية عبر تاريخها،

---

(٢) انظر: ديورانت ، ول ، قصة الحاضرة ،٢/٣٣٨.

(٣) انظر: شلبي، أديان الهند الكبرى،ص٣٣. الحفني، موسوعة الطب النفسي، ٢/١١٧٤.

وركبت الصعاب في سبيل دعوة هذا الإنسان للرجوع إلى فطرته التي فطر عليها، وعدم السير في طريق الهلاك وطريق الفناء المتمثل في عصيان الله عز وجل.

لقد بيّن صاحب الظّلال أن هذا الوجود يسير على سنن وقوانين أودعها الله فيه، وكلما ارتقى الإنسان في سلّم المعرفة كُشِف له عن أطراف من هذه السنن والقوانين بمقدار يناسب إدراكه المحدود، ويعتمد الإنسان في معرفة هذه الأطراف على وسيلتين أساسيتين يستخدمهما عقل الإنسان هما: الملاحظة والتجربة. وهما وسيلتان جزئيتان في طبيعتهما وغير نهائيتين ولا مطلقتين في نتائجهما؛ لأنهما مرتبطتان بمحدود وهو العقل الذي لا يمكن أن يتعدّى إطاره الذي حدّده له الله سبحانه، وهنا يجيء دور الرسالة، دور الطبيعة الخاصة التي آتاها الله الاستعداد اللدني لتتجاوب في أعماقها ولترسم للبشرية اتجاهها الشامل، اتجاهها الذي يتسق مع فطرة الكون وقوانينه الثابتة وناموسه المطَّرد؛ لأنها تتلقى مباشرة وحي الله، فلا تخطيء ولا تضلّ ولا تكذب ولا تكتم....

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

من ثم كان هناك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق عن الوجود والإنسان.. مصدر واحد هو مصدر الرسالات، وما عداه ضلال وباطل، ذلك أن الذي يضع خطة الرحلة للطريق كله هو الذي يدرك الطريق كله، والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق. بل هو محجوب عن اللحظة التالية، ودونه ودونها ستر مسبل لا يباح لبشر أن يطلع وراءه! فأنّى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟! إنه إما الخبط والضلال والشرود، وإما العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود، منهج الرسالات ومنهج الرسل[١].

والواقع الذي نعيش يصدّق هذا؛ فإن العالم اليوم بلغ مبلغاً عظيماً في العلم والتطوّر، في مجال المخترعات والمكتشفات العلمية التي تساعد في ملاءمة هذه الحياة للإنسان، وتجعلها أخف وطأة على النفس وتذهب بالإنسان كل مذهب في الرفاهية والتمتع بهذه الحياة، ولكن ما أتعس البشرية في ظل هذا التطوّر!! لا سيما تلك الشعوب التي نَحّت الدِّين الحق عن حياتها، فها هي تبحث كل يوم عن السعادة الحقيقية فلا تجدها، تخبطت خبط عشواء فأنتجت مذاهب فكرية شتى: مِن الإلحاد إلى الشيوعية إلى الرأسمالية إلى الديمقراطية... حتى انتشر فيها

---

(١) قطب، سيد، الظلال ، ١/ ٢٧٩-٢٨١، بتصرف.

العري والشذوذ الجنسي والضياع والفراغ الروحي بشكل غير مسبوق كل هذا وهي تلهث بحثاً عن السعادة المنشودة، ومن هنا كثرت حالات الانتحار في هذه الشعوب.

لهذا كله اصطفى الله سبحانه رسلاً من الناس ليبلغوهم عن ربهم ما يحقق لهم السعادة في الدارين، فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج: ٧٥].

فمن الله القوي العزيز يصدر الاختيار للرسل من الملائكة والناس، يختارهم وفق علمه سبحانه ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] يجتبيهم لحمل رسالته لكل أمة.. فما من أمة إلا وقد أرسل الله فيها نذيراً يدعو لعبادة الله الواحد القهار ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر: ٢٤].

قال العلامة ابن عاشور –رحمه الله–: "وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي ﴾ لأن المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختص بالاصطفاء.. وليس لأهل العقول ما بلغت بهم عقولهم من الفطنة والاختيار أن يطلعوا على خفايا الأمور فيصطفوا للمقامات العليا من قد تخفى عنهم نقائصهم بله اصطفاء الحجارة الصمّاء"[1].

جميع الحقوق محفوظة

وهكذا ما أرسل الله من رسول إلا احتج عليه قومه من جهة اختياره ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴾ [إبراهيم: ١٠] فكان الجواب من الرسل واحداً: ﴿ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ ﴾ [إبراهيم: ١١] فاختيار الرسل ليس للبشر وإنما هو لخالق هذا الكون الواحد القهار.

إن هؤلاء الرسل، قد اختارهم الله سبحانه وشهد لهم بالهداية إلى الطريق القويم، والصراط المستقيم، وأنهم أكثر الناس معرفة بالله سبحانه وخشية له[2]، قال سبحانه بعد أن

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير، ٣٤٤/١٧.

(٢) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ٥٥٠/٧. الشوكاني، فتح القدير ، ٤٦٦/٣.

ذكر ثلة منهم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم: ٥٨].

فقد أنعم الله سبحانه عليهم بنعم عظيمة والتي من أهمها نعمة الهداية والاجتباء للرسالة.

قال صاحب روح المعاني: "﴿وممن هدينا واجتبينا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿من ذرية آدم﴾ و(من) للتبعيض، أي ومن جملة من هديناهم إلى الحق واخترناهم للنبوة والكرامة"(١) وبالتالي فإنهم أنبياء منعم عليهم من ضمن المهديين المجتبين.

"والسياق يستعرض المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية، فآدم عليه السلام يشمل الجميع، ونوح عليه السلام يشمل من بعده، وإبراهيم عليه السلام يشمل فرعي النبوة الكبيرين، ويعقوب عليه السلام يشمل شجرة بني إسرائيل. هذا جمعوا بين العمل الصالح والنسب الطيب.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

هؤلاء الأنبياء -ومعهم بقية المهديين والمجتبين- من صفتهم أنهم أتقياء شديدو الحساسية بالله ترتعش وجداناهم حين تُتلى عليهم آياته المتضمنة حججه ودلائله وبراهينه، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر فتفيض عيونهم بالدموع ويخرّون سجداً وبكياً خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة"(٢).

والرسل والأنبياء هم القنطرة التي يطلعنا الله بها على شيء من عالم غيبه ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) الالوسي، روح المعاني، ١٦/٥٦٥.

(٢) قطب، سيد، الظلال، ٤/٢٣١٤.

وهذه الآية جاءت في ختام ما نزل من القرآن تعقيباً على غزوة أحد[١] وقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة ما أصابهم، فأنزل الله في شأنها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، يبيّن الدروس والعبر من هذه الغزوة، ويجلي الأسباب التي كانت وراء ما أصاب المسلمين في تلك الغزوة، وهذه الآية التي بيّن أيدينا تبين لنا أحد أهم الأسباب التي أرادها الله وقدّرها لغزوة أحد..

يؤكد النص القرآني ويقطع أنه ليس من سنن الله وليس من مقتضى ألوهيته أن يذر صف المؤمنين مختلطاً غير مميز يتوارى فيه المنافقون وراء دعوى الإيمان وذلك لأن الله سبحانه قد أخرج الأمة المسلمة لتؤدي دورها في بناء الحياة وفي عمارة الكون، ولا يمكن أن تؤدي هذا الدور في ظل وجود الخبث.. المنافقون الذين يوهنون الصف ويفرقون الكلمة ويمزقون وحدة الأمة.

كل هذا يقتضي أن يطهر الصف ليخرج منه الخبث، وينقى من الدّخل، وهذا ما كان في غزوة أحد التي ميّزت المؤمن من الكافر، وأظهرت الولي من العدو وهتكت ستار المنافقين وبينت مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم[٢].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فإن ما حصل يوم أُحُد كان بتدبير من العزيز الحكيم، ولا يعني أبداً أن المؤمنين على باطل وأن أعداءهم على حق؛ لا بل إن ذلك كان ابتلاء للمؤمنين حتى يتميز المؤمن من المنافق، فتتوحد كلمة المؤمنين ويقاتلوا صفاً واحداً متماسكاً كأنهم بنيان مرصوص.

ثم إن الإنسان ليس له أن يطلع على غيب الله، فينظر إلى ما في هذا الغيب من مصير وفتن وابتلاءات ولو قدّر لهذا الإنسان أن يطلع على غيب الله لتعطلت الحياة؛ فإنه إما أن يركن ويسكن عن الحركة والعمل وإما أن يبقى خائفاً مما ينتظره في حياته، وعندها -أيضاً- يتوقف عن العمل وتتعطل عمارة الكون، لهذا يقطع النص القرآني بأنه ليس من سنن الله، ولا من مقتضى حكمته أن يطلع الناس على غيبه ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ فعِلْم الغيب مختصّ بالله ولكنه سبحانه يطلع رسله على بعض غيبه كما

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٧٢/٣. ابن كثير، التفسير، ٥٧٤/١.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ٧/٣ و٩ و٨٣. المباركفوري، الرحيق المختوم، ص٢٢٩. البوطي، فقه السيرة، ص١٧٦.

قــــال ســـــبحانه في آيــــــة أخــــــرى:

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] ذلك أن رسل الله هم صفوة الله مـــن خلقـه اجتباهم فأطلعهم على بعض الغيب، وبهم يظهر -أيضاً- بعض من غيب الله، وذلك عن طريـق الإيمان أو الكفر بهم والابتلاء والاختبار لأقوامهم وبهذا الابتلاء تتحقق معرفة الخبيث من الطيب الذي هو جزء من غيب الله[1].

وهو ما حصل بالفعل -كما قلنا- في يوم أُحُد، حين أظهر الله نُكول المنافقين العــاصين لله ولرسوله، المخالفين لأمره عليه الصلاة والسلام، هؤلاء المنافقون الذين كانوا يشـككون في رسالة النبي عليه السلام بمعونة أبناء القردة والخنازير من اليهود والنصارى الذين كانوا تلـك الفترة يعايشون المسلمين في بداية العهد المدني.

ثم يتجه النص إلى المؤمنين ليحققوا في ذواتهم مدلول الإيمان ويسلموا الأمر لله عز وجـل ويلتزموا بطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، طاعة مطلقة في كل ما يقول: ﴿فآمنوا بـالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾ فالإيمان الحق هو الإيمان بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ويرى ابن عادل الدمشقي -رحمه الله- إن الإتيان بلفظ (رسله) على الجمع لأن طريـق إثبات نبوة جميع الأنبياء واحد[2] والإيمان بواحد من الأنبياء يعني الإيمان بجميع الأنبياء والكفـر بواحد يعني الكفر بكل الأنبياء.

هؤلاء هم قدوة الناس في هذه الحياة، يأخذون بأيديهم إلى بَرِّ الأمان، يبلغون رســالات ربهم، ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه، فأيّدهم الله سبحانه ووعدهـــم بـــالنصر ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١]... هــؤلاء هم صفوة الله من خلقه اصطفاهم واختارهم لحمل رسالته إلى البشرية لئلا يكون للناس حجـة على الله بعد الرسل، فهم القدوة الحية في كل زمان، يقتدي بهم الناس في وجوه الخير كلـــها،

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٥٧٤/١. قطب، سيد، الظلال، ٥٢٥/١.

(٢) انظر: ابن عادل، اللباب، ٨٢/٦.

يبشرون المطيعين برحمة الله وينذرون العاصين بعقابه وعذابه ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥].

لذلك كله كانت طريقهم مليئة بالعقبات والصعاب فكانوا يواجهون من أقوامهم التعذيب والتنكيل والتقتيل والسخرية والاستهزاء والتكذيب... وهم صابرون محتسبون، يواظبون على أمر الله ليل نهار، لا يكلّون ولا يملّون، قال صلى الله عليه وسلم: (أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)[١].

المطلب الثاني
تفضيل بعض الأنبياء على بعض

لقد اجتبى الله الأنبياء وكرمهم بأن جعلهم المبلغين عنه والموصلين رسالته إلى البشر، لكنه سبحانه خص ثلة منهم بمزيد فضل، وعظيم تكريم...

قال ابن كثير -رحمه الله-: "ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء[٢]. وأن أولي العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن[٣] في سورة الأحزاب [٧] ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ وفي الشورى [١٣]: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ ولا خلاف أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام على

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

---

(١) الترمذي، السنن، ص٥٤٧، ح(٢٣٩٨) وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح". ابن ماجه، السنن، ص٥٨٠، ح (٤٠٢٣).

(٢) النبي غير الرسول: ذلك أن النبي إنسان أوحي إليه بشرع سواء أمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا. فإن أمر فهو نبي رسول، فالنبي أعم من الرسول، وهذا هو القول المشهور الذي عليه الجمهور وهناك أقوال أخرى لا يتسع المجال لذكرها. انظر: الماوردي، أعلام النبوة، ص٣٨. القاضي عياض، الشفا، ٢٥١/١. الرازي، التفسير الكبير، ٥٤٨/٧. التفتازاني، المقاصد، ١٧٣/٢. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٨٠/١١. الشهاب الخفاجي، عناية القاضي (حاشية البيضاوي)، ٢٨٣/٦.

(٣) وقيل: إن أولي العزم جميع الرسل، انظر: ابن كثير، التفسير، ٢١٩/٤.

المشهور"[١].

والتفضيل بين الأنبياء يتعلق بعدة أمور، منها مجال دعوة الرسول، كأن يكون رسول قبيلة أو رسول أمّة، أو رسولاً إلى الناس والأمم كافة في جميع الأجيال... ومنها المزايا التي يهبها الله لشخص الرسول أو لأمته... ومنها طبيعة المعجزات التي يؤيده الله بها... ومنها طبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة.[٢]

والقرآن يبين لنا أن هناك تفاضلاً بين الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- وذلك في أكثر من آية من آياته.

يقول سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٥].

فبمقتضى علم الله الذي وسع السماوات والأرض كان تفضيل بعض الأنبياء على بعض، لا بمقتضى التشهي ولا بمقتضى التميز العنصري كما يفعل البشر، وفي هذه الآية مثال على ذلك التفضيل وهو داود عليه السلام، حيث فضله الله بإيتائه الزبور، وإنما جعل إيتاء الزبور مظهراً من مظاهر التفضيل، لأن الكتب أبقى من الخوارق المادية التي يراها بعض الناس في ظرف معين من الزمان[٣].

وفي ذكر زبور داود عليه السلام -خاصة- إشارة إلى تفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وتفضيل أمته؛ وذلك أن الله سبحانه كتب هذا التفضيل في الزبور، فقال عز قائلاً: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، على ما قال غير واحد من المفسرين[٤]..

وهذه الآية من سورة الإسراء التي كانت في أواخر العهد المكي نزولاً[٥] وهي فترة

---

(١) ابن كثير، التفسير، ٦٥/٣.

(٢) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٨٣/١.

(٣) انظر: ابن عادل ، اللباب ، ٣١٢/١٢.

(٤) انظر: الالوسي ،روح المعاني ،١٢٢/١٥.

(٥) انظر: الطبري، جامع البيان، ٥/٨.

انتقال جاءت فيها هذه الآية للرد على كل من يحتج على إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من عرب ويهود ونصارى... فكما أن الله سبحانه قد فضل داود عليه السلام بأن آتاه الزبور، فضل محمداً صلى لله عليه وسلم واصطفاه من خلقه ليكون خاتم النبيّن وآتاه القرآن -المعجزة الباقية إلى قيام الساعة- فالتفضيل والاصطفاء راجع إليه سبحانه، يصطفى من خلقه من يشاء، وليس لأحد أن يعترض عليه أو يعترض على رسله صلوات الله عليهم أجمعين.

ومن الآيات التي تظهر فضل بعض الأنبياء على بعض قوله سبحانه: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

إن الرسل هم خيرة الخلق وهم ذوو طبيعة خاصة عالية مرتفعة على الناس، ولكن الله سبحانه قد فضّل بعضهم على بعض وهنا يذكر النص بعض مظاهر التكريم[1]: منها تكليم الله سبحانه لبعضهم، وهنا ينصرف الذهن لموسى عليه السلام، ومنها رفع الدرجات في الدنيا والآخرة كما حصل لإبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣].. ومنها إيتاء الله البينات والتأييد لرسول من رسله وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد آتاه الله آيات عظيمة تشمل الإنجيل والخوارق التي أجراها الله على يديه وأيده بجبريل عليه السلام الذي كان يحمل الوحي إلى الرسل -عليهم السلام- وهو أعظم تأييد، وكان ينزل بالسَّكِينة والتثبيت والنصر عليهم وكله من تأييد الله لهم. والآية [البقرة: ٢٥٣] لم تذكر محمداً صلى الله عليه وسلم لأن الخطاب موجّه إليه كما في الآية السابقة ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٢][2].

---

(١) سيأتي مزيد تفصيل في المبحث التالي عن الأنبياء الذين يذكرون في آيات هذا المطلب.

(٢) انظر: ابن كثير، التفسير، ٤٠٨/١. قطب، سيد الظلال، ٢٨٣/١.

ونأتي لشطر الآية الذي يتحدث عن اختلاف اتباع الرسل، فما وجه الربط بين أول الآية وآخرها؟ وما وجه ذكر اختلاف الأتباع بعد ذِكْر تفضيل بعض الأنبياء على بعض وخصوصاً الأنبياء الذين ذكرهم الآية الكريمة ؟

إن وحدة (تلك الرسل) ووحدة رسالتهم لم تمنع من وقوع الاختلاف بين الأتباع الذين عرفوا الحق من الباطل، حتى وصل ذلك الاختلاف إلى حدّ الكفر والإيمان (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) عندئذ لزمت المدافعة ولزم الاقتتال، لدفع الكفر بالإيمان، والضلال بالهدى، ولا يكفي أن يقول قوم: إنهم أتباع الرسل والأنبياء، إذا وصل الأمر إلى حدّ الكفر والإيمان، لأن القول وحده لا يفيد الاتّباع.. فقد كان مشركو مكة -وقت نزول هذا النص- يدّعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام وكان اليهود يزعمون أنهم على دين موسى عليه السلام، والنصارى يزعمون أنهم على دين عيسى عليه السلام وكل فرقة مِن هذه الفِرق كانت قد بَعُدت بُعداً كبيراً عن عقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل، وانحرفت، فجاء هذا النص ليقرر حقيقة مطلقة لا تتغير ولا تتبدل على جميع الأحوال، وهي أن الاقتتال بين المختلفين على العقيدة هو من سُنن الله التي لا تتبدل، وأن قتال المخالفين لعقيدة التوحيد (عقيدة تلك الرسل) هو قتال مأذون فيه من الله سبحانه(١).

إيداع الرسائل الجامعية

وهذا النص يصرح بعيسى ويشير إلى إبراهيم وموسى عليهم السلام ليقرر أن صراع المسلمين في مستقبلهم سيكون مع طائفتين نازعتا أمة الإسلام القيادة العالمية هما اليهود والنصارى، الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم وأنهم أصحاب الدين الحق والنهج القويم وهم ينطلقون -في زعمهم هذا- من تفضيل بعض الأنبياء -كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام- ظناً منهم أنهم أتباع لأولئك الأنبياء وهم يعلمون أن أنبياء الله كلهم بريئون منهم ومِن أفعالهم ولو كانوا يؤمنون بأنبيائهم حقاً، لآمنوا بهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه الله ليكون خاتم أنبيائه ورسله.

ثم إنه من حيث التفضيل لبعض الأنبياء على بعض فإن محمداً صلى الله عليه وسلم هو أفضل البشر -والأنبياء- على الإطلاق كما سنرى في المبحث التالي إن شاء الله.

وقبل أن نختم هذا المطلب لا بد من الإشارة إلى قضية لها تعلق بموضوعنا وهي: أنه قد

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١/٢٨٥.

ورد النهي عن تفضيل بعض الأنبياء على بعض، فما هو الجمع بين الآيات التي سبقت في هذا المطلب والتي تنصّ على تفضيل بعض الأنبياء على بعض.. والأحاديث التي تنهى عن التفضيل؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل أذكر حديثاً ينص على النهي..

فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: "بينما يهودي يعرض سلعة له أُعطي بها شيئاً، كرهه أو لم يرضه، قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر! قال: فسمعه رجلٌ مِن الأنصار فلطَم وجهه، قال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر! ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا أبا القاسم، إن لي ذمة وعهداً، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (لِمَ لطمتَ وجهه؟) قال: قال -يا رسول الله-: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر! وأنت بين أظهرنا. قال: فغضب رسول الله حتى عُرف الغضب في وجهه ثم قال: (لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه يُنفخ في الصُّور فيُصعق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بُعث، أو في أول من بُعث، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أحُوسِبَ بصعقته يوم الطُّور أو بُعث قبلي، ولا أقول: إن أحداً أفضل مِن يُونس بن متّى عليه السلام)"[1].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

والجواب عن هذا الحديث من وجوه:

أحدها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله من باب الهضم والتواضع.

الثاني: أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص المفضول.

الثالث: أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة، كما هو واضح من قصة الحديث.

الرابع: أن النهي عن التفضيل بمجرد التشهي، ومن غير دليل.

---

(١) البخاري، الصحيح، ص٣٨٧، ح(٢٤١١). مسلم، الصحيح، ١٢٨/١٥، ح(٦١٠٢) واللفظ له.

الخامس: أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التفضيل، لأن مقام التفضيل ليس للبشر وإنما هو لله عز وجل وعلى الناس الانقياد والتسليم له والإيمان به.. والله تعالى أعلم.
(١)

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(١) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ٥٢١/٢. النووي، المنهاج (شرح صحيح مسلم) ٤٠/١٥. ابن كثير، التفسير، ٤٠٨/١.

المبحث الثالث
نماذج قرآنية في اصطفاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

تبين لنا فيما مضى كيف أن الله سبحانه قد اصطفى الأنبياء والرسل، وجعل بعضهم أفضل من بعض، ولكن الحديث هناك كان بشكل إجمالي، أما في هذا المطلب فسأعرض لأهم النماذج القرآنية على اصطفاء الأنبياء عليهم السلام.

ولن يكون حديثي عنهم بشكل تفصيلي يشمل جميع الجوانب التي بينها القرآن من خلال عرض قصصهم، لأن هذا الموضوع له كتبه الخاصة التي تعالجه، ومنها كتب التفسير وكتب قصص الأنبياء.

أما في هذه الرسالة فإنني سأتحدث -بمشيئة الله- ما يتعلق بموضوع الاصطفاء فقط..

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

تبين هذه الآية سلسلة الاصطفاء النبوي، وتقف بنا على أهم قواعد تلك السلسلة من صفحة النُّبوَّة..

فيؤكد لنا الله سبحانه أنه جل في علاه قد اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران عليهم السلام على العالمين، فأما آدم ونوح فالاصطفاء لهما بشخصيهما، وأما إبراهيم وعمران فالاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك، على ما تقرر من أن وراثة النبوة والبركة ليست وراثة دم وإنما هي وراثة العقيدة(١)، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤] فالرابطة الأساسية التي تربط الأنبياء هي رابطة العقيدة، والاختيار والاصطفاء

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١/٢٨٤.

الإلهي، وإن كانت تربطهم أيضا رابطة النسب، حيث إن الجميع يرجعون لآدم ونوح عليهم السلام.

ومن خلال هذه الآية سيكون الحديث عن تلك النماذج الحيَّة في تاريخ البشرية، تلك النماذج التي اصطفاها الله على العالمين وجعلها مصابيح هدى تنير الطريق للتائهين.

فقد اصطفى الله سبحانه آدم عليه السلام، وخصه بمزيد فضل: فهو أبو البشر، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء..[1]

ومما يدل دلالة واضحة على اصطفاء الله لآدم عليه السلام قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٦١-٦٣].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تعرض هذه الآيات سر ضلال الضالين، والأسباب الحقيقية له، وتبين أن هذا الضلال هو من إبليس لعنه الله، الذي أخذ عهداً على نفسه أن يغوي أبناء آدم، فيعطيه الله القدرة على ذلك ليجعل من يطيع الشيطان في جهنم، ويجعل من يطيع الله ورسله في الجنة..

فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم تكريماً واجتباءً له، واصطفاء له على العالمين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا ذلك اللعين إبليس، اعترض على رب العالمين وما ينبغي له وتطاول على خالقه فقال افتخاراً بنفسه واحتقاراً وحسداً لآدم عليه السلام وإنكاراً لأمر الله: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ اعترض على الطين ونسي نفخ الله في هذا الطين، ونسي خلق الله لهذا الطين بيده!

ثم يزداد هذا اللعين في جرأته وكفره وتطاوله على خالقه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: أترى هذا

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٤٧٨/١.

المخلوق الذي كرمته وفضلته علي؟ لئن أخرتني إلى يوم القيامة، فلأستولين على ذريته واحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم[١].

عندها أعطى الله الملعون القدرة على إغواء ذرية آدم ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ اذهب وحاول مع بني آدم بكل وسيلة تشاؤها وهم مخيرون باتباعك، ذلك أن طريق الحق واضح وطريق الشرّ واضح أيضا فمن اتبعك منهم فإنهم —وأنت معهم— ستكونون في جهنم خالدين فيها.

والملعون عندما اعترض هذا الاعتراض وأخذ على نفسه ما أخذ، نسي استعداد هذا المخلوق للخير والهداية استعداده للشرّ والغواية، وهذا ما جرّبه فِعلاً مع آدم عليه السلام في قصة الشجرة.. فقد منع اللهُ آدمَ عليه السلام وزوجَه الأكل من شجرة من أشجار الجنة، فنسي آدم فأكل من الشجرة هو وزوجه، قال سبحانه: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] وهذه هي الآية الثانية التي تبين اصطفاء آدم عليه السلام.

أكلا من الشجرة نسياناً كما قال سبحانه قبل هذه الآيات: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه: ١١٥] فبدت لهما سوءاتهما الحقيقية ولعل سوءاتهما لم تكن قد بدت لهما قبل هذه المرة[٢] ثم جعلا يغطيان عوراتهما بورق شجر الجنة[٣].

﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ ذهب ابن قتيبة —رحمه الله— إلى أنه يجوز أن يقال عصى آدم، ولا يجوز أن يقال: آدم عاص؛ لأنه إنما يقال (عاص) لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه، فيقال: خاط ثوبه ولا يقال: هو خيّاط. حتى يعاوده ويعتاده[١].

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٢٣٨/٤. وانظر في معنى الاحتناك: الراغب، المفردات، ص٦٢٠.

(٢) لذلك قال سبحانه: ﴿فبدت لهما﴾ ولم يقل: فبدت سوءاتهما. انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٣٥٤/٤.

(٣) (يخصفان) يجعلان عليهما خَصَفة وهي أوراق. انظر: الراغب، المفردات، ص٢٨٤.

وإثبات المعصية لآدم دون زوجه؛ لأن الأهم نظراً إلى مسار القصة التصريح بما أسند إلى آدم عليه السلام[٢]، وأيضا يدل على أنه كان قدوة لزوجه فلما أكل من الشجرة تبعته زوجه[٣].

وبعد ذلك، تاب آدم من تلك المعصية لله، وطاعته للشيطان، تاب هو وزوجه ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣] ثم اجتباه ربه فقربه إليه واصطفاه وقَبِل توبته وهداه إلى صراطه المستقيم، ولم تذكر التوبة هذه هنا في نفس السورة (طه) لتبدو رحمة الله في الجو وحدها[٤].

تلك هي المعصية التي ارتكبها أبونا آدم عليه السلام والتي يبين لنا الله من خلالها واقع النفس البشرية، إنها نفس تقبل الخير والهداية قبولها الشر والغواية، نفس تعصي خالقها وتطيع عدوها وعدو خالقها، ولكنها قليلاً ما تعود إلى بارئها وتتوب إليه، نفس تبحث عن الملك والخلود دائماً. ولكن الله سبحانه قد اصطفى آدم وتاب عليه وجعله من المقربين إليه فصلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

وأما نوح عليه السلام فقد اصطفاه الله سبحانه ونص على اصطفائه كما في الآية التي في بداية المبحث[٥] [آل عمران: ٣٣] فقد جعله الله أول رسول إلى أهل الأرض[٦] لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وقد وصفه الله سبحانه بصفة العبودية والشكر فقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] والشكور هو الذي

---

(١) انظر: ابن قتيبه ، تأويل مشكل القرآن، ص٣١٣.

(٢) انظر: الالوسي، روح المعاني، ٧٧٧/١٦.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ، ٣٢٧/١٦.

(٤) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٣٥٥/٤.

(٥) ص٣٧.

(٦) ثبت هذا في حديث الشفاعة الطويل الذي رواه أكثر من صحابي. انظر: البخاري، الصحيح، ص١١٣٥، ح(٦٥٦٥). مسلم، الصحيح، ٥١/٣، ح(٤٧٤). الترمذي، السنن، ص٥٥٤، ح(٢٤٣٤). ابن ماجه، السنن، ص٦٢٩، ح(٤٣١٢).

يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية[١]، ومن مزاياه عليه السلام صبره مع طول مدة دعوته.

هذا بالنسبة لاصطفاء آدم ونوح عليهما السلام، أما اصطفاء إبراهيم وذريته عليهم الصلاة والسلام فسأفصل فيه القول بإذن الله...

لقد اصطفى الله إبراهيم عليه السلام وجعل له منزلة عظيمة وقربه إليه وقد جاء ذلك في أكثر من آية من آيات الكتاب العزيز..

قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١].

يبين الله في هذه الآية أنه أنعم على إبراهيم عليه السلام بنعم عظيمة، وآلاء جليلة، تصبّ كلها في باب بيان صفاته واصطفائه، ومن هذه النعم أنه سبحانه نسب الدين الحق إليه (ملة إبراهيم) وكفى بها من شرف، وبيّن أن مَن يرغب عن دين إبراهيم سفيه جاهل مجنون، ثم إن الله اصطفاه في الدنيا وجعله في الآخرة من الصالحين[٢].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

قال ابن عادل الدمشقي: "وأكد جملة الاصطفاء باللام والثانية بـ(إن) و(اللام)، لأن الثانية محتاجة لمزيد تأكيد، وذلك أن كونه في الآخرة من الصالحين أمر مغيب، فاحتاج الإخبار به إلى فضل توكيد"[٣].

ثم بين سبحانه أن اصطفاءه هذا كان من تسليم إبراهيم المطلق لله، في كل أموره، صغيرها وكبيرها، ناداه ربه بنداء الفطرة إلى الإسلام، فأسلم على الفور ولم يتلكأ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ وذلك رمز إلى قوة إسلامه، حيث أيقن إيقاناً تاماً أن ربه رب للعالمين كلهم، ورب لكل المخلوقات، وليس ربه فقط..

---

(١) انظر: الراغب، المفردات، ص٤٦١.

(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٢٧٧/١.

(٣) ابن عادل، اللباب، ٤٩٩/٢.

وفي ذلك رد على كل من ادّعى الانتساب لإبراهيم -كأهل الكتاب والعرب المشركين- الذين يدّعون أنهم مؤمنون بإبراهيم وبدين إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم بريء منهم.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

وهذه آية أخرى تبين لنا بعض مناقب إبراهيم التي توضح كيفية اصطفائه عليه السلام:

فقد كان عليه السلام أمة، فالأمة فيها من اشتهر بالكرم وفيها من اشتهر بالصبر وفيها من اشتهر بالشجاعة وفيها من اشتهر بالعلم، وفيها من اشتهر بكثرة الطاعة، وفيها من اشتهر بالفطنة والذكاء.. وهكذا، أما إبراهيم عليه السلام فقد كان إماماً في كل وجوه الخير كما قال عليه سبحانه عنه: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤] ويحتمل أن يكون عمله كعمل أمة كاملة، بما فيها من خير وطاعة وبركة[١].

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومن صفاته عليه السلام أنه كان قانتاً أي ملازماً لطاعة الله، مع خضوع له واستسلام[٢].

ومن صفاته كذلك أنه كان حنيفاً أي مائلاً بكليته عن الضلال إلى الاستقامة[٣].

متبرئاً من الشِّرك وأهله، لهذا زكّاه الله بنفي الشرك عنه بالكلية (ولم يكُ من المشركين).

ومن صفاته أيضا: أنه كان شاكراً لأنعم الله والشاكر -كما قال أهل العلم-[٤] هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية، شكراً لله، لذلك لم يُثْن بالشكر من أنبيائه إلا على اثنين: إبراهيم ونوح عليهما السلام[٥].

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ص٥٩٩/٢. المراغي، التفسير، ٢٧٠/٥.

(٢) انظر: الراغب ، المفردات، ص٦٨٥.

(٣) المرجع السابق ، ص٢٦٠.

(٤) انظر: الصفحة ٤٠ من هذه الرسالة.

(٥) انظر: الراغب، المفردات، ص٤٦٢.

فإن قيل: لفظ الأنعم جمع قلة، ونعم الله على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة، فلم قال: (شاكراً لأنعمه)؟

فالجواب أنه كان شاكراً لجميع نعم الله سبحانه وتعالى القليلة، فكيف الكثيرة؟[1] وقيل: إنما جمع النعمة جمع قلة؛ لأن نعم الله لا تُحصى ولا يطيق الإنسان شكرها جميعها، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].[2]

لهذه الأعمال الجليلة والصفات الحميدة التي وفقه الله لها، اجتباه سبحانه واصطفاه وهداه إلى صراط مستقيم ﴿ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وليس هذا فحسب، بل إن الله قد جمع له خيري الدنيا والآخرة جزاء له على أعماله: ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

وقد ورد له بعض الصفات التي تبين منزلته في العبادة في غير هذه الآيات..

فما أن بلغ -عليه السلام- رشده، حتى نظر حوله في عبادة أبيه وقومه للأصنام فلم يقتنع بعبادتهم تلك، وأخذ ينكر عليهم ويتبرأ منهم ومن عبادتهم وأصنامهم، لهذا وصفه سبحانه بأنه ذو قلب سليم خال من أمراض القلوب كلها الصغيرة والكبيرة: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات: ٨٤].

ثم إنه عليه السلام كان حليماً لا يسرع إلى الانتقام ممن أساء إليه، كثير التأوّه من خشية الله، منيباً إليه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود: ٧٥].

وقد وفى عليه السلام جميع ما أُمر به في كل مقام من مقامات العبودية: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٢٧] قال الزمخشري -رحمه الله- عن الفعل (وفّى): "وإطلاقه

---

(١) انظر: ابن عادل، اللباب، ١٨٤/١٢.

(٢) انظر: السامرائي، فاضل صالح، التعبير القرآني، ص٤٠.

ليتناول كل وفاء وتوفية، من ذلك: تبليغه الرسالة، واستقلاله بأعباء النبوة والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه".[١]

لذلك فإنه عليه السلام وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد إلى الله، وانتهى إلى درجة الخُلَّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذلك إلا لكثرة طاعته لربه[٢]، قال سبحانه: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وجعل له الذِّكْر العطر إلى يوم القيامة، ومن ذلك أن المسلمين يذكرونه في كل صلاة من صلاتهم، فقد سئل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن كيفية الصلاة عليه فقال: (قولوا اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، اللهم بارِك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنكَ حميدٌ مجيد)[٣].

وقد جعل سبحانه إبراهيم أبا الأنبياء فما من نبي أتى بعده إلا وهو من ذريته، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧]

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فقد اصطفى الله إسماعيل وإسحاق ويعقوب واليسع وذا الكفل عليهم السلام، قال سبحانه:

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص: ٤٥-٤٨].

يوجِّه الله سبحانه خاتم أنبيائه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أن يذكر هذه الثلة المصطفاة، ويعيش بهم، ويتأمل صبرهم، ورحمة الله بهم، وما أغدق عليهم من نعم عظيمة وفضائل كثيرة؛ لأن الله لا يدع عباده الصابرين، حتى يعوضهم عن صبرهم بركة ورحمة واصطفاء وخيراً.

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤٢٧/٤.

(٢) انظر: ابن كثير، التفسير، ٧٤٤/١.

(٣) البخاري، الصحيح، ص٥٦٤، ح(٣٣٧٠) واللفظ له. مسلم، الصحيح، ٣٤٥/٤، ح(٩٠٧).

من هذه الثلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ومن صفتهم أنهم أولو الأيدي والأبصار أي: جمعوا بين العمل الصالح والفِكر السَّديد والنظر الصائب، وكأن من لم يعمل صالحاً لا يَدَ له ومن لم يفكر تفكيراً سليماً يوصله إلى ربه لا عقل له ولا نظر![1].

وهؤلاء ما كان عملهم وتفكيرهم هذا إلا لوجه الله سبحانه، والفوز في الآخرة، لهذا أخلصهم الله بإخلاصهم هذا، وجعلهم من زمرة عباده المصطفين الأخيار، فهم أخيار مختارون[2]: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

قال الالوسي –رحمه الله–: "وتعريف الدار للعهد أي الدار الآخرة، وفيه أشعار بأنها الدار في الحقيقة وأن الدنيا مجاز، أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة جليلة لا شوب فيها وهي تذكرهم دائماً الدار الآخرة فإن خلوصهم في الطاعة بسبب تذكرهم إياها".[3]

ومن هذه الثلة أيضاً إسماعيل واليسع وذو الكفل وقد وصفهم الله بالخيرية، وكفى بها من نعمة وفضل ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقد اصطفى الله يونس عليه السلام من ذرية إبراهيم كذلك، قال سبحانه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

ففي هذه الآية يوجه الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى خلق الصبر، الصبر الذي يشكل قاعدة العبودية لله، لا سيما والطريق كله عقبات وأشواك: التكذيب والتعنت والعناد، والتعذيب والتنكيل بأصحاب الدعوات، وقِلّة الحيلة وذات اليَد، ثم الثبات النفسي بكل رضا وبكل عزيمة على كل تلك العقبات...

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٣٠٢٢/٥.

(٢) انظر: ابن عادل، اللباب، ٤٣٢/١٦، وقد ذكر غير هذه الوجوه في معنى الأيدي والأبصار والخالصة.

(٣) الالوسي، روح المعاني، ٢٧٨/٢٣.

ولهذا شاء الله أن تكون طريق نجاح الدعوات التضحية والصبر الطويل عليها وعلى آلامها ومشقاتها، والدعوة إلى الله كذلك لا يمكن أن تنتشر بالرفاهية والدعة، لا يمكن أن تنتشر من غير تضحية ومن غير أن يمر أصحابها بنفق الصبر الذي يخرجون منه وهم يقدمون الدليل الحي على دعوتهم، لا مجرد ادعاءات وتنظير، بل بتطبيق الدعوة واقعاً معيشياً، وهو يحتاج إلى الجهد العظيم والصبر الطويل والعمل الدؤوب، والفناء في الدعوة، وتقديم الصورة المشرقة عن الإسلام كما فعل الرسل عليهم الصلاة والسلام وكما فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حتى قامت لهم دولة في وقت لا يساوي في عمر الزمن شيئاً.

والله سبحانه عندما يوجه النبي صلى الله عليهم للصبر، فرغه من المعركة الحقيقية التي تكفل بها سبحانه مع المشركين وأعداء هذه الأمة ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝ ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥] ، وقد ذكّر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأخ له عاش تجربة مشابهة مع قومه..

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

فقد أرسل الله يونس عليه السلام إلى قوم، فشق عليه تلكؤهم، واستبطأ إيمانهم فتركهم مغاضباً لهم هائماً على وجهه، حتى وصل إلى بحر، فركب سفينة، وفي الطريق قُذف في البحر، فالتقمه الحوت، لذلك سُمي صاحب الحوت، التقمه الحوت ابتلاء من المولى عز وجل، ولأنه استعجل على قومه من غير إذن من الله، لكنه عليه السلام ندم على فعلته وتاب وآب إلى خالقه، فنادى في الظلمات نداء اعتراف وندم، نداء حزن وغم وكرب(١) ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

عندها أدركتْهُ نعمة ربه فأنقذه من الحوت ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ ﴾ أي أنه نُبذ بالعراء وهو غير مذموم من الله(٢)، فاجتباه ربه على الفور واصطفاه وقربه إليه وجعله من الصالحين.

لقد تاب الله على يونس عليه السلام وقبله وجعله من المصطفين الأخيار، وجعله درساً عظيماً لكل صاحب دعوة، أن لا يستعجل على من يدعوه، وأن يعاود الدعوة مرة تلو

---

(١) أصل المكظوم: محبوس النفس، انظر: الراغب، المفردات، ص٧١٢.

(٢) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ٥/٢٤٦.

أخرى، ويوماً بعد يوم، لا يكلّ ولا يملّ، حتى لَو جُوبه بالتكذيب والتعنت والتعذيب..

والحقيقة أن هذه القضية -الصبر على الدعوة- كثيراً ما يؤتى منها بعض أصحاب الدعوة إلى الله، فتراهم يريدون أن يقيموا دولة إسلامية عظيمة بين عشية وضحاها، وتراهم يتساقطون على الطريق عند أول منعطف يواجههم، ثم ما يلبث أكثرهم -ولا أقول كلهم- أن ينجرف مع التيار، وينسى تلك المبادئ والقيم التي كان يدعو إليها، بل لربما تجده يصف نفسه بأنه كان على خطأ في فهم الإسلام، وأن الإسلام الحقيقي هو ما عليه الآن، ثم تجده يغطي نفسه بشعارات موهمة، تنادي بعصرية الإسلام، وحيوية الإسلام، وشمول الإسلام[1]، وأن الإسلام لا يمنع المشاركة في أي جهة، حتى ولو كانت تلك الجهة تنادي بهدم الإسلام. وهذا من أخطر الانحرافات؛ أن تجد الشخص يقيم على الخطأ ثم يُقنع نفسه والآخرين بأنه على حق، وأنه على دين الله، وأن فِعله هو الدّين لا سواه.

ومن الذين اصطفاهم الله، ذاك الفتى الذي ضرب الله به المثل في العفة والطهارة، إنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن خليل الله، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، الذي جمع شرف النبوة مع شرف النسب وانضم إليه شرف علم الرؤيا، فحاز حُسن السيرة والسريرة إلى جانب جمال الصورة، وقد بلغ من جمال صورته أنه وُصف بأنه ملَك كريم ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

وقد جاءت قصة يوسف عليه السلام مبينة واضحة في سورة سميت باسمه (سورة يوسف)، ونحن لن نأخذ كامل القصة، بل سنتوقف عند محطتين فيها تدلان على اصطفائه عليه السلام..

المحطة الأولى هي قوله تعالى في بداية السورة: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ

---

(١) الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وهو متصف بالشمول والحرية... ولكن أصحاب تلك الشعارات يتخذون مبادئ الإسلام غطاء لهم، فهو كلام حق أُريد به باطل.

رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف: ٤-٦].

يخبر يوسف عليه السلام أباه أنه رأى رؤيا، مفادها: أنه رأى أحد عشر كوكباً، ومعها الشمس والقمر، رآها ساجدة له، متمثلة في صورة العقلاء الذين يسجدون تعظيما.

عندها يدرك الأب الحنون أن وراء هذه الرؤيا شأناً عظيماً لابنه، فينصحه بأن لا يقص رؤياه على إخوته؛ لأنه يعرف التنافس والتحاسد بين الإخوة، خاصة إذا رافق هذا التنافس ميل الأبوين أو أحدهما لأحد الأبناء، هذا التنافس الذي يدخل من خلاله الشيطان، العدو اللدود للإنسان، فيترغ بينهم، ليكيد بعضهم لبعض حسداً وحقداً، من أجل ذلك نصح يعقوب ابنه عليهما السلام بأن لا يقص رؤياه على أخوته ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ثم يتابع يعقوب حديثه قائلاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾. فإني أرجو الله أن يجعلك المختار من أبنائي لتحل عليه بركة النبوة، فيصطفيك ربك كما اصطفى أبويك إبراهيم وإسحاق، فتتم النعمة على آل يعقوب، بأن اختار منهم نبياً[1].

ويعقوب عليه السلام يتجه حسه إلى أن رؤيا ابنه ستكون في وادي الدين والصلاح والخير؛ بحكم جو النبوة الذي يعيش فيه، وبما يعلمه من أن جده إبراهيم عليه السلام مبارك عند ربه[2].

وتأويل الشيء معرفة مآله وما يرجع إليه[3]، ولكن ما هي الأحاديث التي سيعلم الله تأويلها يوسف عليه السلام؟

أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه، ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة، ما

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٦١٦/٢.

(٢) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١٩٧١/٤.

(٣) انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص٢٤.

يدرك مآل ومرجع الأحاديث عامة؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى كما وقع بالفعل في حياة يوسف فيما بعد؟ كلاهما جائز، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب عليهما السلام[١].

أما المحطة الأخرى، فهي قوله تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٤].

إن هذه الحادثة التي تعرض لها الصديق فتنة تهز الجبال، وتذهب بالقلوب، فتنة لا يقف أمامها إلا من استعصم بالله، وأخلص إليه، والقرآن يصور هذه الحادثة بدقة وكأنها رأي العين، وهو لا يفصّل فيها كثيراً بل يأخذ منها ما فيه الكفاية والغنية وما يحقق العبرة...[٢].

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾

إن التجربة أو المحنة التي مر بها يوسف عليه السلام لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق، إنما كانت في حياة يوسف عليه السلام منذ بلوغه ومدة مراهقته كلها في القصر الذي عاش فيه وترعرع، عند هذه المرأة (امرأة العزيز) التي كانت له بمثابة الأم (التي هو في بيتها)، هذه الفترة هي المحنة الطويلة التي مر بها يوسف، وصمد لها ونجا منها، ومن مغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة.

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ونستطيع أن نتصور بعضاً من هذه المغريات.. سنّ يوسف عليه السلام وسنّ امرأة العزيز[٣]، وشدة جماله وفتوته التي تتكامل يوماً بعد يوم، وأنوثتها تتكامل نضجها، وعدم وجود الأولاد، والأولاد من شأنهم أن يروضوا أنوثة الأم، ومكانة هذه المرأة في بيتها ووضع يوسف في هذا البيت، فهي سيدة البيت المطاعة وهو فتاها، ثم العيش في هذه المغريات طيلة

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٤/١٩٧٢.

(٢) لقد أفدتُ كثيراً مما كتبه العلامة سيد قطب –رحمه الله– في ظلال سورة يوسف. وخاصة هذه الآيات التي بين أيدينا. انظر: الظلال، ٤/١٩٨٠.

(٣) يرجح سيد –رحمه الله– من دلائل ألفاظ القصة أن سن يوسف عليه السلام وقت هذه الحادثة كانت حوالي الخامسة والعشرين، وأن سن امرأة العزيز كانت حوالي الأربعين. انظر: الظّلال، ٤/١٩٨٠.

في هذا البيت، فهي سيدة البيت المطاعة وهو فتاها، ثم العيش في هذه المغريات طيلة فترة مراهقته وتحت سقف واحد، فلا بدّ أنها كانت ترسل إليه بعض الإشارات الموحية والحركات المغرية، ثم فوق كل هذا إغراء البيئة التي كان فيها يوسف، بيئة القصور التي لا تعرف -في الغالب- حرارة الشرف والغيرة!!

لم تصبر هذه المرأة على مشاعرها، ولم تستطع إخفاءها، فقد كانت هذه المرة مراودة مكشوفة.

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ والفعل غلق يفيد التكثير(١)، فكأنها قامت بأكثر من إغلاق لكل باب من الأبواب، مبالغة في الإحكام والإغلاق.

وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تحتاج فيها دفعة الجسد الغليظة، ونداء الجسد الأخير.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ولكن، هل اكتفت المرأة بهذا؟ لا؛ بل دعته فوق كل هذا لنفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾(٢)... هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً، فلا بد أنها كانت تظهر إليه بعض الإغراءات الخفيفة اللطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة.

وعند هذه اللحظة تنتفض في يوسف عليه السلام مشاعر الإيمان ويواجه الأمر بحزم وقوة، ويرد رافضاً الأمر ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ أعيذ نفسي بالله وأستجير به سبحانه، الذي أكرمني ونجاني من الجبّ، وجعل في هذا القصر مثواي الطيب الآمن(٣).. ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ الذين يتجاوزون حدود الله، فيرتكبون ما تدعيني اللحظة إليه.

ولقد كان جواب يوسف -عليه السلام- بليغاً؛ إذ بيّن أن الملجأ الوحيد عند حلول

---

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ٥٦/٦.

(٢) ﴿هيت لك﴾ تأتي قريب من (هلم) بمعنى تعال وأقبل، وتأتي كذلك بمعنى تهيأت لك. انظر: الراغب، المفردات، ص٨٤٧.

(٣) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ٣٦١/٢. ابن عادل، اللباب، ٥٨/١١.

الفِتَن هو الله، الذي استجار به، ويستجير به كل الضعفاء والمبتلين، ثم بين –عليه السلام– أن طريق النجاة طاعة الله، وأن عصيانه ظلم لا يفلح صاحبه في الدارين.

وامرأة العزيز لم تزل في مراودتها ليوسف عليه السلام حتى بعد الرفض القاطع منه، ولكنه هذه المرة –بحكم بشريته– مال إليها: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾، اختلفت كلمة المفسرين حول هذه الآية اختلافاً شديداً: فمنهم من وصف يوسف عليه السلام بالرجل الشهواني، هائج الغريزة، المندفع الشبق، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع، فمرّة يأتيه جبريل ومرة تأتيه صورة أبيه وهو عاضّ على أصبعه[1]... جرياً وراء الإسرائيليات التي لا تتفق مع آيات الكتاب العزيز. ومن المفسِّرين من ذهب إلى أن يوسف عليه السلام لم يحصل منه أيّ هَمّ، وأنّ الآية فيها تقديم وتأخير[2]. ومنهم من فسَّر الهم هنا بأنه همٌّ بالضرب[3]، والذي عليه الجمهور[4]، ورجحه العلماء، وهو ما يتسق مع واقع الرسل والسياق القرآني: أن يوسف –عليه السلام– وقع منه ميل نحو امرأة العزيز، وأنه كاد أن يخالطها لولا أنه رأى برهان ربه.. وهو ما أودعه الله في قلبه مِن الخشية لله ودوام المراقبة له سبحانه.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وهَمّ يوسف عليه السلام لم يكن كهمها، لذلك فرّق بينهما ولم يقل (هَما بالمخالطة) أو (همّ كل منهما

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ١٨١/٧. ابن أبي حاتم، التفسير، ٢١٢٢/٧. السمرقندي، بحر العلوم، ١٥٧/٢. السمعاني، التفسير، ٢١/٣. البغوي، معالم التنزيل، ٤٨٤/٢. السيوطي، الدر المنثور، ٤٤٨/٤.

(٢) انظر: أبا حيان، البحر المحيط، ٢٥٧/٦. الشعراوي، التفسير، ٦٩١١/١١. الصابوني، من نور القرآن الكريم، ١٣٠/٥.

(٣) انظر: رضا، محمد رشيد، المنار، ٢٣٣/١٢.

(٤) انظر: ابن عبد السلام، العز، التفسير، ١١٥/٢. الزمخشري، الكشاف، ٤٢٩/٢. ابن العربي، أحكام القرآن، ٣٦/٣. ابن عطية، المحرر الوجيز، ٤٧٧/٧. الرازي، التفسير الكبير، ٤٤٢/٦. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٦٧/٩. الخازن، لباب التأويل، ٥٢١/٢. الثعالبي، الجواهر الحسان، ١٥٠/٢. أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٣٨٠/٣. الشهاب الخفاجي، عناية القاضي (حاشية البيضاوي)، ٢٨٩/٥. الجمل، الفتوحات الإلهية، ٢٣/٤. صديق خان، فتح البيان، ٤٠٢/٣. الشوكاني، فتح القدير، ٢٤/٣. الالوسي، روح المعاني، ٥٥٤/١٢. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٥٢/١٠. الشنقيطي، أضواء البيان، ٦٨/٣. حوى، سعيد، الأساس، ٢٦٤٦/٥.

بالآخر[1]...

هذا ما يترجح من سياق القصة، ذلك أن يوسف عليه السلام رفض الأمر أولاً ثم عرض له ضعف البشر، ثم عاد واستعصم بالله الذي استجار به أولاً، والقرآن صوّر تلك الحادثة تصويراً صادقاً.

ولكن قد يرِدُ هنا تساؤل، أليس هذا الهَمُّ معارضاً للنبوة؟ فكيف يُنسَب هذا الهَمّ ليوسف عليه السلام وهو نبي؟

نترك إجابة هذا السؤال لشيخنا الدكتور فضل حسن عباس –حفظه الله– الذي يقول: "إن يوسف عليه السلام بشر، ومثله في جماله ونضارته وشبابه وفي النعيم الذي يعيش فيه وهو سويٌّ في رجولته لا مانع من أن يفكر في هذا. ولكن لا يقف الأمر هنا، بل إن هنا سر العظمة أن يفكر أحدنا في شيء تتوق إليه نفسه ولكن يمتنع عنه رغم كل الظروف والموجبات، إن يوسف –عليه السلام– لو لم يكن منه هذا الهمّ لكان عديم الشهوة وانتزعت منه الحاجة إلى النساء، وإذا كان كذلك، فليس هناك عظيم فضل في امتناعه عن إجابة المرأة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إن هناك فرقاً كبيرا بين من يترك الشهوة خشية الله، وبين من تتركه هذه الشهوة؛ لأنه لا يقدر عليها، إن ما أراده الله تبارك وتعالى هو أن يكون في خبر يوسف درس لأولئك الذين تتوافر لهم ظروف الشهوة، ولكنهم مع ذلك يأبون ويمتنعون، ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله –كما حدثنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم–: (شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله)[2]"[3].

وهذه الإجابة قريبة من إجابة الإمام الزمخشري –رحمه الله– حيث ذهب إلى أن نفس يوسف مالت إلى المخالطة، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه، كما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، ثم كسر ما به ورجع إلى الله، ولو لم يكن ذلك الميل المسمى هما لشدته لما كان صاحبه عند الله بالامتناع ممدوحا؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء

---

(١) انظر: الالوسي، روح المعاني، ١٢/٥٥٤.

(٢) البخاري، الصحيح، ص١٠٧، ح(٦٦٠)، مسلم، الصحيح، ٧/١٢٢، ح(٢٣٧٧).

(٣) عباس، فضل حسن، القصص القرآني، ص٤٠١.

على حسب عظم الابتلاء وشدته[1].

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وهكذا يصرف الله عنه السوء والفحشاء ويخلصه من تلك المرأة، لأنه من عباد الله المخلصين الذين أخلصوا دينهم لله، واعتصموا به، المخلصين الذي اجتباهم الله، واصطفاهم لحمل رسالته.

قال الالوسي –رحمه الله–: "ولا يخفى ما في التعبير بالجملة الاسمية من الدلالة على انتظامه عليه السلام في سلك أولئك العباد الذين هم هم من أول الأمر لا أنه حدث له ذلك بعد أن لم يكن"[2].

وقد مكّن الله ليوسف عليه السلام وأراه تأويل رؤياه التي رآها في صغره، بأن جعله على خزائن مصر، فجاءه أبواه وأخوته وسجدوا له تعظيماً وإجلالاً.

وهكذا نطوي صفحة يوسف عليه السلام لنذهب إلى صفحة أخرى، اصطفى الله صاحبها وجعله من زمرة المجتبين المختارين كذلك، إنه كليم الله موسى عليه السلام... وسنقف على اصطفائه عليه السلام من خلال بعض الآيات:

الوقفة الأولى في سورة طه، يقول سبحانه: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ ﴾ [طه: ٩-١٥].

يضرب الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في حديث موسى هذا نموذجاً كاملاً عن رعايته سبحانه وتعالى لمن يختارهم لإبلاغ دعوته، فلا يشقون بها وهم في رعايته.

رجع موسى إلى مصر بعد سنين من خروجه منها، وبعد أن تزوج بابنة ذاك الشيخ الذي في مدين من أرض الشام، وفي الطريق ضل في الصحراء، ذات الليالي الباردة، وفجأة في ظلمة

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ٤٣٠/٢، بتصرف قليل.

(٢) الالوسي، روح المعاني، ٥٥٩/١٢.

الليل رأى ناراً استأنس بها واطمأن قلبه إليها؛ لأنه لا يخلو إما أن يأتيَ من النار بقبس يستدفئ به وأهله، ويستنيرون به إلى خروج النهار.. وإما أن يجد على النار من يهديه إلى طريقه، أو يهتدي بذات النار إلى طريقه[1] ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾ وقد استخدم عليه السلام فِعْل الترجّي (لعلي) لئلا يعد بشيء فلا يستطيع الوفاء به[2]، المهم أنه ذهب فعلاً، ذهب يطلب الهدى من نار الدنيا، فوجد هدى الدنيا والآخرة، ذهب ليتخلص من تيه الصحراء فوجد الهدى والنور الذي أضاء ظلمة الدنيا...

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ ﴾

إن الموقف عظيم حقاً؛ فموسى عليه السلام وحده في تلك الفلاة، والليل دامس في ذلك الوادي وهو متجه نحو تلك النار التي آنس من جانب الجبل، وإذا بنداء الحق ينبهه: يا موسى! فتتحرك في موسى مشاعر الخوف والقلق فمن ذا الذي يناديه باسمه في هذا المكان الخالي وفي هذه الصحراء المظلمة؟

جميع الحقوق محفوظة

عندها تسرع إليه الإجابة ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ لا تخف ولا تقلق، إنني أنا ربك الذي خلقك ورزقك ورعاك في صغرك وأنقذك من فرعون وملأه... وجاءت الجملة ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ مؤكدة، لأن الموقف يحتاج إلى تأكيد وتثبيت.

﴿ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ جرِّد قدميك لأنك بالواد المقدس طوى[3].

﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ اخترتك للرسالة واصطفيتك على الناس، وجعلت لك هذا الشرف، فاستمع جيدا وأنصت لكل ما يوحى إليك طيلة حياتك وخذه بقوة، ولا تتساهل في حمله.

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٣٣١/٤.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩٣/١٦.

(٣) قيل: إن (طوى) هو اسم الوادي، وقيل: صفة لذلك الوادي، بمعنى أنه مصدر طَوَيْت، فكأنه طوى عليه مسافة لو احتاج أن ينالها في الاجتهاد لبَعُد عليه. انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ١٨٧/٣.

والمولى جل وعلا هيأ موسى عليه السلام بجملة مهيئات: أتى به إلى ذلك الوادي وحده، ثم بين له أنه ربه، ومن شأن العبد أن لا يغفل إذا كان بحضرة ربه، ثم أمره بخلع نعليه وبشّره بالرسالة وأخيراً أمره أن يستمع جيدا لما يوحى.. كل هذا لينتبه جيداً وليستمع لكل ما يقوله له ربه.

ثم بين له أصول رسالته التي سيرسله بها: الاعتقاد بالوحدانية، والتوجه بالعبادة، والإيمان بالساعة وهي أسس رسالة الله الواحدة لكل الأنبياء[١].

أما الوقفة الثانية مع كليم الله، فستكون في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [الأعراف: ١٤٣-١٤٤]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

خرج موسى عليه السلام وبنو إسرائيل من مصر بعد أن نجاهم الله من فرعون وملئه، وجاء موسى لميقات ربه الذي وقته له ليأخذ الألواح التي فيها هدى ورحمة لبني إسرائيل.

جاء موسى لميقات ربه، وكلمه الله، ولكن نفس موسى كانت مشتاقة إلى شيء أكبر من الكلام.. إلى رؤية الله سبحانه، طلب موسى من ربه أن يظهر ويبان إليه: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ قال ابن عادل –رحمه الله–: "قوله (أرني) مفعوله الثاني محذوف تقديره أرني نفسك، أو ذاتك المقدسة، وإنما حذفه مبالغة في الأدب، حيث لم يواجهه بالتصريح بالمفعول"[٢].

عند ذلك يردّ الله سبحانه على موسى بأنه لن يستطيع رؤيته ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾[٣]،

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٣٣١/٤.

(٢) ابن عادل، اللباب، ٣٠١/٩.

(٣) احتج المعتزلة ومن تبعهم بهذه الآية على عدم رؤية الله سبحانه في الدنيا والآخرة. فقالوا: إن المراد: فإن استقرّ مكانه حال تحركه، وهو مستحيل، فالرؤيا معلّقة على مستحيل، فتكون مستحيلة. انظر: الزمخشري، =

فيرفق به الله، ويبين له لماذا لن يراه؟ إنه لا يطيق ذلك، ويوضح له الأمر، فيطلب منه النظر إلى جبل (الطور)[١]، ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ انظر إلى ذلك الجبل العظيم الكبير، فسوف أتجلى للجبل، فإن بقي فسوف تراني، ولكن هل يستطيع الجبل أن يستقر؟ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾ تجلى للجبل وظهر وبان[٢]، فصار الجبل دكاً، مستوياً بالأرض، فصُعِق موسى وخرّ مغشياً عليه[٣]، لم يستطع رؤية الجبل وهو يُدك، فكيف سيرى رب الجبل؟!

أفاق موسى، وأدرك مدى طاقته واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله، فاستغفر ربه وأناب ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ والرسل دائماً هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله.[٤]

عندها تدرك موسى رحمة ربه، ويبين له بأنه من عباده المصطفين الأخيار، وبأنه فضله على الناس برسالاته وبكلامه: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الكشاف، ١٤٤/٢. السالمي، مشارق أنوار العقول، ٢٤٩/١. المظفر، عقائد الإمامية، ص٣٦. وقولهم هذا لا دليل عليه ولا داعي يدعو إليه كقولهم: إن (لن) في قوله تعالى: (لن تراني) للتأبيد.

أما أهل السُنّة فيثبتون رؤية الله في الآخرة، واختلفوا: هل رأى محمد صلى اله عليه وسلم ربه في الدنيا؟ فمنهم من أثبتها ومنهم من نفاها. وقالوا في هذه الآية: إن رؤية الباري عُلقت على أمر ممكن وكل ما عُلق على ممكن لا يكون إلا ممكناً، فرؤية الباري لا تكون إلا ممكنة. انظر: البخاري، الصحيح، ص١٢٧٩. مسلم، الصحيح، ١٨/٣. أبو داود، السنن، ص١٠٧٨. الطبري، التفسير، ٥٠/٦. الرازي، التفسير الكبير، ٣٥٤/٥. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧، أبو حيان، البحر المحيط، ١٦٢. ابن القيم، حادي الأرواح، ص٢٦٠، ابن أبي العز، شرح العقيدة. الطحاوية، ص١٨٠.

(١) انظر: الالوسي، روح المعاني، ٦٣/٩.

(٢) انظر: الزجاج، معاني القرآن، ٣٧٣/٢.

(٣) ﴿جعله دكا﴾: سوّاه بالأرض. وصعق: غشي عليه. انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص١٠٩، ١٨٣.

(٤) انظر: ابن كثير، التفسير، ٣٢٧/٢.

﴿ وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ يا موسى إني اصطفيتك، وخذ ما آتيتك من الرسالة والألواح وكُن من الشاكرين.

وقدّم الرسالة على الكلام ليترقى إلى الأشرف، وكرّر حرف الجرّ، تنبيهاً على مغايرة الاصطفاء، فقد حصل له الاصطفاء بمجموع الأمرين: الإرسال والكلام[١].

ونختم الكلام عن كليم الله موسى بالوقفة الأخيرة في سورة مريم، والتي فيها تلك الإشارة الموجزة السريعة: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾

[مريم: ٥١-٥٣].

وفي هذه الآيات تعداد للنعم التي أنعم الله بها على موسى، وهي كالختام لقصته عليه السلام، فلقد أخلصه الله لنفسه وجعله رسولاً نبياً[٢]. وقربه إليه وكلمه حتى صار الكلام مناجاةً[٣]، وذلك -كما سبق- في قصة الطور، ثم أتم له رحمته به فبعث معه أخاه هارون عليهما السلام يشاركه في أعباء النبوة، وجعله له كالهبة.

ولقد اصطفى الله -أيضاً- داود وابنه سليمان من ذرية إبراهيم عليهم السلام، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل:١٥-١٦].

لقد آتى الله داود وسليمان علماً عظيما، فلم يتنكرا لهذه النعمة، بل شكرا الله عليها ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومن التفضيل الذي فضلهما الله به على كثير من المؤمنين اصطفاؤهما، واختيارهما للنبوة ولهداية الناس.

---

(١) انظر: ابن عادل، اللباب، ٩/٣٠٤.

(٢) سبق التفريق بين النبي والرسول صفحة ٣٢ من هذه الدراسة.

(٣) انظر: الالوسي، روح المعاني، ١٦/٥٦٠.

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ ميراث نبوة وصلاح[١] ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فقد أعطاهم الله نعماً جليلة، وعلماً عظيماً، ومن هذا العلم، منطق الطير، وسائر الحيوان كما جاء في قصة النملة، قال سبحانه:

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل:١٩].

وأعطاهم من كل شيء كما جاء في سورة سبأ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٠-١٣].

فلقد أنعم الله على داود وسليمان عليهما السلام بنعم عظيمة. أمّا داود، فالجبال ترجع معه التسبيح[٢]، وكذلك الطير، تخفق حوله بأجنحتها جيئة وذهابا وهي تؤوب معه التسبيح.

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

قال الرازي -رحمه الله-: "لم يكن الموافق له في التأويب منحصراً في الطير والجبال ولكن ذكر الجبال لأن الصخور للجمود والطير للنفور[٣]، وتستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقه هذه الأشياء، فغيرها أولى، ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة"[٤].

ومن الفضل الذي أعطاه الله، إلانةُ الحديد، والسياق يرجح أنّ إلانةَ الحديد لم تكن من مألوف البشر؛ فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين، وإنما كان الحديد يلين معه بقدرة الله

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٤٧٦/٣.

(٢) الأوب: ضرب من الرجوع. انظر: الراغب، المفردات، ص٩٧.

(٣) النفور: ضد الجمود. انظر: الراغب، المفردات، ص٨١٧.

(٤) الرازي، التفسير الكبير، ١٩٦/٩.

من غير وسيلة اللين المعهودة، وإن كان مجرد الهداية لإلانة الحديد بالتسخين فضلاً من الله[١]. والله تعالى أعلم.

وإلانة الحديد لداود عليه السلام، ليعمل الدروع ويقدر في خرزها[٢]، فلا يكون الخرز متباعدا يسهل اختراقه، أو متقارباً يثقل الحركة. ولا يكون صغيراً يسهل كسره، أو كبيراً جداً يعيب الدرع[٣].

وأما سليمان عليه السلام، قد سخر الله له الريح، تجري بأمره حيث أراد، غدوها مسيرة شهر، وسير رواحها شهر، فكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين[٤]. وأسال الله له عين القطر[٥] وهي مما امتن الله به على سليمان، فلا نعرف مكانها ولا ماهيتها.

وسخَّر له مِن الجن مَن يعمل تحت سلطانه، يعملون له ما شاء من محاريب[٦] وتماثيل وجفان[٧] للطعام ضخمة كأحواض الماء الكبيرة[٨]، وقدور ضخمة راسية لضخامتها.. تعمل هذه الجن، ومن يزغ منهم عن طاعة سليمان عذبه الله ونكل به.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

لهذه النعم أمر الله آل داود بالشكر، بالعمل وغيره ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ وقال لهم أولاً ﴿واعملوا صالحاً﴾ وهنا قال: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ ليوجههم إلى أن يكون عملهم شكراً لله على نعمه، وقليل من يستشعر هذا المعنى، فإن الإنسان مهما بلغت أعماله فلن تفي بشكر الله على نعمه.

---

(١) انظر: الالوسي، روح المعاني، ٣٩٥/٢٢. قطب، سيد، الظلال، ٢٨٩٧/٥.

(٢) السرد هو الخرز. انظر: الراغب، المفردات، ٤٠٦.

(٣) انظر: ابن عادل، اللباب، ٢٤/١٦.

(٤) المرجع السابق، ٢٥/١٦.

(٥) القِطر: هو النحاس. انظر: الزجاج، معاني القرآن، ٢٤٥/٤.

(٦) المحراب: مكان العبادة، انظر: الراغب، المفردات، ص٢٢٥.

(٧) الجِفان جمع جفنة. وهي: وعاء الطعام. انظر: الراغب، المفردات، ص١٩٧.

(٨) الجوابي جمع جابية وهي: الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل. انظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ص٥٤.

ثم إن الله قد اصطفى آل عمران من ذرية إبراهيم[1] قال سبحانه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقد سبق شرح هذه الآية في بداية المبحث.[2]

وذكر آل عمران من باب ذكر الخاص بعد العام، وقد جاء ذكره لمناسبة خاصة هي عرض قصة مريم وعيسى عليه السلام بعد هذه الآية من سورة آل عمران[3]. وقد بينت هذه السورة بعض مناقب آل عمران، وركزت الحديث على اثنين منهم، هما مريم وابنها عيسى عليه السلام، وبينت أمر عيسى وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول. وأنه لم يخرج عن شريعة موسى -عليهما السلام-، بل جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة، ولكن خفف الله به عن بني إسرائيل بعض أحكام التوراة[4].

وبالتالي فقد هدمت هذه السورة كل ما كان يدور حول عيسى عليه السلام من أساطير، وخرافات، كان ينسجها أهل الكتاب وخصوصا النصارى منهم، الذين يؤلهون عيسى، فإذا كان وجود عيسى من غير أب غريبا فإن وجود آدم من غير أب وأم أغرب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقد بيّنت السورة -أيضا- مكانة مريم وأطْرَتها، ورفعت من مقامها، قال سبحانه: ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

تبين هذه الآية مكانة مريم بين الناس، وهي اختيار الله لها، والشهادة لها بالطهر، واصطفاء الله لها على نساء العالمين.

---

(١) عيسى من ذرية إبراهيم عليهما السلام. كما جاء في سورة الأنعام﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين﴾ (٨٥) عطفا على قوله سبحانه: ﴿ومن ذريته﴾ (٨٤) أي: ومن ذرية إبراهيم عيسى. انظر: ابن كثير، التفسير، ٢٠٩/٢.

(٢) ص٣٧.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ٦٨/٢.

(٤) انظر:قطب، سيد، الظلال، ٤٠٠/١.

قال ابن عاشور –رحمه الله–: "وتكرر فعل الاصطفاء، لأن الاصطفاء الأول ذاتي، وهو جعلها منزهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير، فلذلك لم يُعَدّ الأول إلى متعلق وعُدّي الثاني"(١).

وقيل: إن الله اصطفى مريم أولاً حين تقبلها من أمها واصطفاها آخراً بأن وهب لها عيسى من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء(٢).

وقيل: إن الله اصطفاها مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين(٣).

واصطفاء مريم كان على نساء العالمين كلهن، وليس على نساء زمانها فقط(٤). وفي ذلك رد على أولئك الذين اتهموا مريم البتول بالتهم الباطلة الزائفة التي ألصقوها بها عبر تلك القرون، ومن هنا تظهر عظمة الإسلام، فها هو ذا محمد صلى الله عليه وسلم يقص على أهل الكتاب ومنهم النصارى قصة مريم ويصفها بأنها مصطفاة على نساء العالمين، فيرفعها إلى أعلى الدرجات(٥) مادحاً لها بطهارتها، وهم يردون عليه بالتكذيب والتعنت ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالإسلام(٦).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٤٤/٣.

(٢) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ٢١٥/١. ابن جزي، التسهيل، ١٤٤/١. الالوسي، روح المعاني، ٢٠٥/٣.

(٣) انظر: ابن كثير، التفسير، ٤٨٢/١.

(٤) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ٢١٥/١. ابن جزي، التسهيل، ١٤٤/١. قطب، سيد، الظلال، ٣٩٥/١.

وقيل: إن الله اصطفاها على نساء زمانها فقط لما روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد) قال النووي في شرح هذا الحديث: "أي كل ما بين السماء والأرض من النساء، والأظهر أن معناه: أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها، وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه" النووي، المنهاج (شرح صحيح مسلم)، ١٩٤/١٥، ح(٦٢٢١).

قلت: لا تعارض بين الحديث والآية، لأن الحديث يفضل كلاً منهما على نساء العالمين ، أما الآية فتنص على اصطفاء مريم على سائر النساء، فثبت أن مريم أفضل النساء على الإطلاق.

(٥) قيل: إن اصطفاء مريم هو للنبوة. انظر: ابن حزم، الفصل، ١٨٧/٣. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٨٣/٤.

والصحيح الذي عليه الجمهور أنها ليست نبية. انظر: الرازي، التفسير الكبير، ٢١٧/٣، العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري (شرح صحيح البخاري) ٥٨٢/٦، أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٣٦٧/١.

(٦) انظر: قطب، سيد ، الظلال، ٣٩٥/١.

وبهذا نصل إلى النبي المصطفى خير الخلق أجمعين، محمد صلى الله عليه وسلم والحديث عنه، حديث ذو شجون، ولقد أُلِّفت في حقه صلى الله عليه وسلم الأسفار، أما الحديث هنا فسيكون في مجال الاصطفاء.

ولا يوجد في كتاب الله نص يقرن بين لفظة الاصطفاء ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم -مع أنه عليه الصلاة والسلام مصطفى ولا شك بل هو سيد البشر- وسأحاول التقاط بعض الإشارات الدالة على هذا الاصطفاء، وإن لم تصرح بلفظه مدعمة ببعض الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم[1]. والله الموفق.

الإشارة الأولى:

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهو عليه الصلاة والسلام الرحمة المهداة لكل العالمين، أنسهم وجنهم رحمة لهم في الدنيا، ورحمة لهم في الآخرة، كما ثبت من حديث الشفاعة[2] حين يشتد الكرب على الناس في المحشر، فيلتون إلى الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، كلهم يقول عن نفسه: لست لها، حتى يأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيشفع فيهم عند ربهم عز وجل.

الإشارة الثانية[3]:

أنه تعالى قرن طاعته بطاعته، فقال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] وبيعته ببيعته، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] ورضاه برضاه، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢] وإجابته بإجابته فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

---

(١) انظر: ما كتبه الرازي في اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جاء بتسع عشرة حجة على تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم على كل الأنبياء. الرازي، التفسير الكبير، ٥٢١/٢.

(٢) سبق تخريجه، انظر: إلى صفحة رقم ٤٠ من هذه الدراسة.

(٣) الرازي، التفسير الكبير، ٥٢٢/٢، بتصرف قليل.

الإشارة الثالثة:

أنه ما من نبي بعثه الله إلا وقد أخذ عليه العهد والميثاق: لئن بُعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو حي ليؤمنن به وينصرنه[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٨١].

الإشارة الرابعة:

أن الله شرح له صدره فقال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾ [الشرح: ١] ووضع عنه وزره فقال: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ﴾ [الشرح:٢] ورفع له ذكره، فقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح: ٤] قال الرازي –رحمه الله–: "فقيل فيه: لأنه قُرِن ذِكْر محمد صلى الله عليه وسلم بذِكْره في كلمة الشهادة وفي الأذان وفي التشهد ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك"[2].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الإشارة الخامسة:

أن الله شهد له بسلامة العقل فقال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [النجم:٢] وشهد له بالصدق في النقل فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [النجم:٣] وشهد له بقوة العلم، فقال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [النجم: ٥] وشهد له بسلامة الفؤاد فقال: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ [النجم:١١]، وشهد له بصدق البصر، فقال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم:١٧] وشهد له بالخلق العظيم فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤] وشهد له بالهداية فقال: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى:٧].[3]

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٥٠٢/١. ونسب هذا القول إلى علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ٥٢١/٢.

(٣) انظر: ابن كثير، التفسير، ٣١٥/٤ و ٣١٦و ٣١٩و ٣٢٣و ٥١٧و ٦٧٦.

الإشارة السادسة:

أن الله أرسله إلى الخلق كافة، لذلك فُضِّل على باقي الأنبياء الذين بعث كل منهم إلى أمة مخصوصة، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨] وهو كما قال صلى الله عليه وسلم: (فُضِّلتُ على الأنبياء بستٌ: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصِرت بالرُّعب، وأُحِلّت لي الغنائم، وجُعِلَت لِيَ الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافة، وخُتم بِي النبيون)(١).

الإشارة السابعة:

أنه تعالى جعله كالخاتم والطابع الذي ختم به النبيون فقال سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ويبين لنا صلى الله عليه وسلم كيفية ختمه للأنبياء بمثل رائع فيقول: (إنَّ مَثَلي ومَثَل الأنبياء مِن قبلي كمَثل رَجل بَنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنَة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)(٢).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الإشارة الثامنة:

أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم، فيكون صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الإشارة التاسعة:

أن معجزة رسولنا صلى الله عليه وسلم -القرآن- أفضل من معجزات سائر الأنبياء فكان صلى الله عليه وسلم أفضل منهم(٣).

ثم إن من الأحاديث ما ينص على اصطفائه صلى الله عليه وسلم وتفضيله ومنها -عدا ما سبق- "أن النبي صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال: (من أنا؟) فقالوا: أنت رسول الله عليك السلام، قال: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. إن الله خَلَق الْخَلْقَ فجعَلني في

---

(١) مسلم، الصحيح، ٨/٥ ، ح(١١٦٧).
(٢) البخاري، الصحيح، ص٥٩٥، ح(٣٥٣٤). الترمذي، السنن، ص٨٢٤، ح(٣٦١٣).
(٣) انظر: الرازي، التفسير الكبير، ٥٢٢/٢و٥٢٣.

خيرهم فِرقة، ثم جَعَلهم فِرقتين فجَعلني في خيرهم فِرقة، ثمّ جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثمّ جعلهم بُيوتاً فجعلني في خيرِهم بيتاً وخيرهم نفساً)"[١].

ومِن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا كان يوم القيامة كنتُ إمام النبيين وخطيبهم وصاحبَ شفاعتهم غَير فَخرٍ)[٢].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيِّد ولَد آدم يوم القيامة ولا فَخر، وبِيَدِي لواءُ الحمد ولا فَخْر، وما مِن نبيٍّ يومئذ –آدم فمن سواه– إلا تحت لوائي، وأنا أول مَن تنشقُّ عنه الأرض ولا فَخْر)[٣].

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول ثُم صلُّوا عليَّ فإنه مَن صلَّى عليّ صلاة، صلّى الله عليه بها عشراً، ثم سَلُوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ مِن عباد الله وأرجو أنْ أكون أنا هُو، فمَن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة)[٤].

جميع الحقوق محفوظة

فاللّهم اجْزه عنا خير ما جزيت نبياً على دعوته، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، واحشُرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، واجعلنا ممن يرافقه في الجنان، اللهم صلِّ عليه ما طلَع الليل والنهار، وصلّ عليه ما ذكره الذاكرون الأخيار، وصلّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن تَبعه بإحسان إلى يوم الدين.

هؤلاء هم رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، اجتباهم وطهَّرهم ونقاهم مِن الشوائب وقربهم إليه، حازوا أوسمة الشرف على مر الأزمان، بالعمل الصالح والقدوة الحسنة، فانظر –يا رعاك الله– إلى هذه الآيات من سورة الأنعام وانظر كيف جعلهم الله مصابيح الهداية للبشرية.. قال سبحانه: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا

---

(١) الترمذي، السنن، ص٨٢٣، ح(٣٦٠٨). وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب ".

(٢) الترمذي، السنن، ص٨٢٤، ح(٣٦١٣). وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب".

(٣) الترمذي، السنن، ص٨٢٤، ح(٣٦١٥). وقال:" هذا حديث حسن صحيح".

(٤) مسلم، الصحيح، ٣٠٧/٤، ح(٨٤٧).

مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ[١] دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ[٢] وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٧].

وهؤلاء الصفوة تربطهم رابطة الاصطفاء النبوي وإن كان الجميع يرجع إلى إبراهيم ونوح عليهم السلام في النسب، وقد وصفهم الله بصفات الإحسان والصلاح والفضل. ثم بين سبحانه أنه هداهم واجتباهم، وأكرمهم بأن هدى لهم بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم وألحقهم بهم. وذكر هؤلاء الرهط جاء لتقرير أمور:

أولاً: أن مصدر الهداية هو الله سبحانه يهدي من يشاء من عباده ومنهم عباده المصطفون، ولو أن العباد المهديين حادوا عن توحيد الله، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه الهدى، فإن مصيرهم أن يذهب عملهم ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً فتنتفخ ثم تموت[٣]، قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ثانياً: أن هؤلاء الرسل هم الذين وكلهم الله بدينه يعلمونه للناس ويقومون عليه، وقد أعطاهم الله الكتاب والحكم -السلطان أو الحكمة-[٤] والنبوة، للسير في طريق دعوة الناس، وقد وكل الله أمّة محمد صلى الله عليه وسلم للإيمان بهم إلى يوم القيامة لا يضرهم من كفر وضل[٥]، قال سبحانه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن

---

(١) الضمير يعود على إبراهيم لأن الكلام عنه، وقيل: إن الضمير يعود على نوح لأنه أقرب مذكور. انظر: ابن كثير، التفسير، ٢/٢٠٩.

(٢) أي: وهدينا من آبائهم... انظر: العَكْبَري، التبيان، ١/٤٠٤.

(٣) أصل الحَبْط من الحَبَط وهو أن تأكل الدابة نبتاً مسموماً ثم تنتفخ فتموت. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢/٦٥.

(٤) انظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ٢/٤١٢.

(٥) انظر: ابن كثير، التفسير، ٢/٢١٠.

يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ثالثاً: أن هؤلاء الرهط الكرام هم الذين هداهم الله وهُداهم الذي جاءهم مِن الله فيه القدوة لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمن به، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهذه التقريرات تسكب الطمأنينة في قلوب العصبة المؤمنة -أيا كان عددها- بأنها ليست وحدها وأنها ليست مقطوعة من شجرة، إنها فرع منبثق عن شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهداه، إن المؤمن الفرد في أي أرض وفي أي جيل، وفي أي مكان وزمان، أنه قوي قوي.. وكبير كبير، لأنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الإنساني[1].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ولكن بعد أن اصطفى الله هذه الثلة الطيبة، لا بد أن يطرأ سؤال مهم، وهو: ما هو الهدى الذي جاؤوا به؟ وما هو الدين الذي كانوا يدعون إليه الناس؟ وهل ما جاؤوا به واحد أم أنه أشياء مختلفة؟

هذا ما سنعرفه في المبحث القادم إن شاء الله.

(١) انظر: قطب، سيد ، الظلال، ١١٤٤/٢.

المبحث الرابع
اصطفاء الدين للناس

إن الله سبحانه اصطفى الإنسان ورفع منزلته بين الخلائق، وما ذاك إلا ليعبده وحده لا شريك له، فاعتلى هذا المخلوق كرسي الخلافة بمقتضى تلك العبودية.

ولكن كيفية العبودية تخفى على البشر، أو أنهم ينسونها مع طول الزمن، فينشأ عن هذا النسيان تحريف ومغالاة... لذلك اصطفى الله الأنبياء، وبعثهم إلى البشر، ليرشدوهم إلى الطريقة المثلى في العبودية، الطريقة الصحيحة في عبودية الله، وليردوهم إذا زلوا أو حادوا عن تلك الطريق.

لذلك كانت طريق الأنبياء واحدة، ودعوتهم جميعاً واحدة... العبودية والاستسلام والخضوع لله وحده.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه قد أمر إبراهيم بشيء واحد هو الاستسلام له سبحانه، فاستجاب لذلك وأسلم لرب العالمين، فجعلها كلمة باقية في عقبة إلى يوم الدين، ووصية لأبنائه يوصي بها بعضهم بعضاً إلى يوم الدين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هذه هي وصيته وكل من يرغب عنها فهو سفيه مجنون ظالم لنفسه(١).

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٢٥٤/١.

إن الله سبحانه اختار للبشرية جمعاء، ديناً واحداً، وطريقة واحدة، فضلها على سائر السبل، ونقاها من الشوائب الموجودة في غيرها من تلك السبل، فلا ينبغي لهم الموت إلا على الإسلام الذي اصطفاه الله لهم(١)، لذلك قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قال النسفي -رحمه الله-: "فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا، كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع، فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في صلاته"(٢).

الإسلام هو الدين الذي اصطفاه الله وجعل من يدين به مصطفى، الدين الذي لن ينجو عند الله إلا من جاء به ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولكن ما هو مفهوم هذا الدين -الإسلام-؟ الدين الذي ندعو الناس إليه؟ والذي لن ينجو عند الله إلا مَن دان به؟

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إنك لو ذهبت تسأل المسلمين أنفسهم عن هذا الدين، لحصلت منهم على إجابات عديدة وكثيرة!!

فبعضهم حصر الدين في الشعائر التعبدية، كالصلاة والصيام والزكاة... وبعضهم حصره في التلفظ بالشهادتين، وبعضهم حصره في أسماء الله وصفاته، وبعضهم حصره في الأوراد والأذكار، وبعضهم حصره في إقامة دولة الخلافة الإسلامية، وبعضهم حصره في الخروج إلى المساجد ودعوة الناس إلى بعض الآداب، وبعضهم حصره في إقامة النشاطات التربوية!!

إن كل ما ذُكِر هو بعض أحكام الدين وليس هو الدين، ليس هو الدين الذي ندعو الناس إليه، ليس هو الدين الذي نعادي من أجله ونوالي من يدين به ونتبرأ ممن لم يأت به، ليس هو الدين الذي لن ينجو عند الله إلا من جاء به.

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٢٥٤/١.

(٢) النسفي، مدارك التنزيل ٩٠/١.

إذاً، فما هو الدين الذي جاءت به الرسل والأنبياء وجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ودعا الناس إليه بداية قبل أي حكم؟؟

إنّ الدِّين القيِّم هو ما نصَّت عليه هذه الآية من سورة يوسف عليه السلام، قال جل شأنه:

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وهذا يعني ألاّ يتخذ العبد إلا الله إلها فلا يدين إلا لله وحده، ولا يخضع إلا له وحده، ولا يتبع إلا أمره وحده، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله وحده، فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله ذلك أن العبادة لا تقوم إذا كان الحكم لغيره.

ثم على العبد ألاّ يتلقى من الله إلا عن الرسول، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يعتمد مصدراً آخر للتلقي إلا هذا المصدر[1].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وبعبارة أخرى: ألاّ يجعل العبد الكلمة العليا عليه إلا لله وحده، حتى لو وصل الأمر إلى القتال والتعذيب وإزهاق الأنفس، وعليه أن يرفض أي كلمة أخرى غير كلمة الله العليا.

وبمجرد أن يدين العبد بهذا، تبدأ آلهة الدنيا بالاصطدام معه، ذلك أن الدنيا مليئة بالآلهة التي تنازع الله سبحانه في العبودية، كلهم يريد أن يكون إلهاً لهذا العبد، وكلهم يقف في وجه العبد إذا اتخذ الله وحده إلهاً.. والقرآن أعطانا عدة نماذج على هذه الطواغيت:

فمن هذه الطواغيت إبليس لعنه الله، الذي كان أول عاص لله بل هو أساس كل عبودية لغير الله.

ومن هذه الطواغيت الهوى ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ومن هذه الطواغيت المال، فترى الإنسان يترك دين الله له، ولا يكون همه في هذه الحياة إلا هو، يفكر فيه ليل نهار، حتى يصل إلى مرحلة عبودية المال، عندئذ يكون المال إلهه.

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١/٤٨١ و ٤/١٩٩١.

ومنها تلك الطائفة من البشر التي تجعل من ذواتها آلهة للناس من دون الله.. وسواء في ذلك العائلة أو العشيرة أو الحكام... وكل من يريد أن يحكم الناس بغير ما أنزل الله، ويشرعون للناس أحكاماً غير ما شرع الله.

وسواء في ذلك، أتسلطوا على الناس بالسوط والعصى أم بالاختيار والرضى؟ أقالوا ذلك بلسان المقال كما فعل فرعون ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] أم قالوه بلسان الحال؟ فالكل مشتركون في نفس الجرم، وكلهم يريد أن يكون الناس عبيداً لهم، وكلهم ينازع الله جل جلاله ألوهيته.

ومن أخطر الطواغيت التي تحكم في الناس بغير ما شرع الله، تلك الفئة التي تحلل وتحرم متبطنة باسم الدين، سواء على شكل علماء عملاء أو جمعيات أو أحزاب.. اندسوا في صفوف المسلمين فأحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، وكل ذلك كان تحت شعار الدين.

ولا يقل أحد: إنه لم يعبدهم، بل إن مجرد اتباع من يحلل ويحرم من دون الله، هو شرك وكفر بالله وهو اتخاذ أولئك أربابا من دون الله.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وقد قرر الله سبحانه هذا في سورة التوبة، فقال جلّ ثناؤه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] فقد اتخذ أهل الكتاب علماءهم أرباباً من دون الله عندما اتبعوهم فيما بدّلوا وغيّروا في شرع الله، فأحلّوا لهم الحرام وحرّموا لهم الحلال.(١)

فعلى المسلم إذا أراد أن يكون لله وحده أن يتبرأ من كل هذه الطواغيت، وألاّ يحتكم لأي منها، وألاّ يجعل لها أي كلمة عليه، وألاّ يجعل لها كلمة مع الله، ذلك أن الله سبحانه لا يقبل إلا أن يكون العبد له وحده، لا يشاركه فيه أي شريك، فان كان العبد لله وحده فقد فاز وإن كان لله ولغيره، أو لغيره فقد خسر خسراناً مبيناً وخالف طريق المصطفين.

والناس إن راجعتهم في هذا الكلام تجدهم يعرفونه ويحفظونه عن ظهر قلب، ولكن قليلاً منهم من يطبق ذلك عملاً، قليلاً منهم من يحتكم في حياته لكلمة الله العليا.

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٤٥٩/٢.

وإن سألتَ عن السبب، فهو الاتساع في مفهوم المصلحة والإكراه والضرورة. وعمموا تلك المفاهيم، وجعلوها ديناً لهم، ونسوا أن المصلحة الحقيقية هي اتباع دين الله ونسوا أن الذي يقرر المصلحة وعدمها هو الله سبحانه، وليس عقولهم وأهواءهم الضالة.

هذا هو الدِّين الذي اصطفاه الله للناس وأمرهم أن يدينوا به، وأمرهم بالدعوة إليه... وهو الدين الذي لن ينجو عند الله إلا من جاء به.

وهذا هو الدِّين الذي عهد الله به إلى الأمم جميعها، فهل حفظت تلك الأمم هذا العهد؟ هذا ما سنعرفه في المبحث التالي إن شاء الله.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الخامس
اصطفاء الأمم

المطلب الأول: اصطفاء بعض الأمم السابقة

إن الحياة الإنسانية، شهدت صراعاً عظيماً بين الأمم وحضاراتها؛ لأنّ كلاً منها تدعي لنفسها الفضل والكمال والشرف، ولأن كلاً منها تدعي لنفسها الاصطفاء والاختيار الإلهي، ومن ثَمَّ هي التي تستحق قيادة الأمم الأخرى، وقيادة البشرية نحو رشدها.

ثم إن الله تعالى جعل قيادة البشرية، مرتبة على الإيمان به وبرسله وخلافته في هذه المعمورة بالعمل الصالح فإن أطاعت الأمة –أيّ أمة– ربها، وأقامت شرعه الذي جاء به رسولها، كانت لها القيادة البشرية، ولكن إذا تخلت الأمة عن منصبها، فعصت خالقها، وفسدت وأفسدت، أنزلها الله عن كرسيّ القيادة وأورثه أمةً أخرى. وهذه سُنة من سُنة الله التي لا تتخلف أبداً، ولا تحابي أحداً مهما كان.

ولقد ضَرَب الله لنا عدة أمثلة في كتابه العزيز على هذه السُّنة، ولكننا سنأخذ بني إسرائيل مثلاً، ذلك أن الله فصل لنا الحديث عنهم، وأكثر لنا من العبر والدروس في نهجهم وشمائلهم...

لقد اختار الله بني إسرائيل على العالمين، واصطفاهم لحمل الرسالة، وأداء الأمانة، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الدخان: ٣٠-٣٣].

فقد نجّى الله بني إسرائيل مِن العذاب المهين الذي كان يسومهم به فرعون، فرعون الذي تكبّر وأسرف في عصيان الله. ثم يُبين الله أنه اختار بني إسرائيل على عِلْم ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي: كنا عالمين بأنهم مستحقون لذلك[1] وأعطاهم من الآيات

---

(١) انظر: ابن جزي، التسهيل ، ٣٢٣/٢.

العظيمة كتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى وغير ذلك لينظر كيف يعملون[١] ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الجاثية: ١٦].

وفي هذه الآية أيضاً يبين الله لنا أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم عظيمة، وأكبرها أنه سبحانه آتاهم التوراة، والحكم لإقامة شريعة الله، والنبوة، فكان فيهم أكثر الأنبياء.[٢] ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على العالمين باختيارهم للقيادة بشريعة الله.

وقال سبحانه مذكراً لهم بالنعم التي أنعم بها عليهم: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢]. أي اذكروا النعم العظيمة التي أنعمت بها عليكم، والتي من أعظمها اختياركم للقيادة البشرية، وتفضيلكم بهذا الاختيار على العالمين[٣].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

ولكن هل قام بنو إسرائيل بهذه المسؤولية؟ للإجابة على هذا السؤال نأخذ هذا الموقف من حياة بني إسرائيل، ولنستشف من خلاله طبيعة بني إسرائيل التي لا تتبدل...

قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤١].

---

(١) انظر: التفسير، مدارك التنزيل، ٤/٥.

(٢) انظر: ابن جزي، التسهيل، ٣٢٧/٢. قطب، سيد، الظلال، ٣٢٢٨/٥.

(٣) المرجع السابق، ٦٩/١ .

لقد نجى الله بني إسرائيل من فرعون ومَلَئه بمعجزة عظيمة، بأن فلق لهم البحر فمشوا فيه، فلحق فرعون وملؤه بهم، لكن الله أغرقهم في البحر... خرج بنو إسرائيل من ذل فرعون واستعباده لهم لأن الله اختارهم للقيادة.

ولكنهم ما إن خرجوا حتى أتوا على قوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم، وهم مجتهدون في عبادة تلك الأصنام، فإذا هم يطلبون من رسولهم موسى –عليه السلام– أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء آلهة ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ !

إنها طبيعة بني إسرائيل، الطبيعة المنحرفة التي ما تكاد تهتدي لنور الحق، إلا وترتكس وتنتكس على أعقابها، الطبيعة التي أخلدت إلى الذل والهوان وإلى الحقد والقسوة، الطبيعة الهابطة، المستغرقة في غياهب الجهل، المنحطة في مستنقعات الشرك والعداء لعقيدة التوحيد والكفر بالله وبرسله !!

جميع الحقوق محفوظة

إنهم ما إن نجاهم الله من ذل فرعون واستعلائه وربوبيته حتى طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً! تركوا دعوة موسى عليه السلام فيهم طيلة السنين الماضية وتركوا اختيار الله لهم للقيادة والإيمان.. نسوا كل هذا فطلبوا من رسول رب العالمين أن يتخذ لهم بنفسه إلهاً! ولو أنهم اتخذوا لهم إلهاً لكان الأمر أقل غرابة من أن يطلبوا إلى رسول رب العالمين –موسى عليه السلام– أن يتخذ لهم آلهة.. ولكنما هي إسرائيل![1]

وهنا، يستغرب موسى هذا السؤال، ويقع في قلبه موقعاً عظيماً، فلم يصدق ما يسمع؛ لقد جرَّب القوم حياة الآلهة، وتعدد الأرباب، وعاشوها طويلاً، فما جنت عليهم إلا الذل والهوان والخزي والضياع.. فلماذا إذن خرجوا من عند فرعون في مصر؟ ولماذا التعب والمشقة ما داموا يريدون العيش تحت ظل تعدد الآلهة؟

لا شك أنهم هازلون مازحون، وإلاَّ، فما يصدر هذا الطلب من ذي لب. ولكنها طبيعة أبناء القردة والخنازير!

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تجهلون مقام الله، وتجهلون مقام رسله، وتجهلون واقع البشر،

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١٣٦٦/٣.

وتجهلون المركز الذي فيأكم الله ظلاله، وتجهلون الدور الذي ينتظركم انطلاقاً من اختياركم للقيادة...

وجهلهم هذا هو جهل سفه وطيش وحماقة، وإلاّ فما كان بنو إسرائيل يجهلون أن ما طلبوا يُعَدُّ جرماً عظيماً في حق الله. فهم يعرفون الله، ولهذا طلبوا (إلهاً) واحداً، ولم يطلبوا آلهة، فهم يريدون صنماً إلها مع الله، وغير الله، بمعنى أنهم يبتغون تعدد الآلهة، كما تعددت آلهة أولئك القوم!

وفي إطلاق الفعل (تجهلون) دلالة على أن جهلهم شامل مطلق مطبق[1]، ثم إن جهلهم هذا مستمر متجدد، وينمو ويزداد فيهم ما بقوا، ويدوم فيهم ما داموا وهو ما يفيده الإتيان بالمضارع (تجهلون)[2].

ويتابع موسى حديثه ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ إنّ حياة الشرك واتخاذ الطواغيت والأرباب من دون الله، حياة آيلة إلى الهلاك وإن العمل الذي يصدر عن كل مشرك هو عمل باطل مهما زُيِّن ومهما جُمِّل فإنه لا يقبل من صاحبه وإن مصير صاحبه إلى النار.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثم يزداد موسى عليه السلام في إنكاره على قومه ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ أتريدون غير الله إلهاً تعبدونه وهو الذي اختاركم للقيادة وشرفكم بالرسالة؟ وليس وراء ذلك من فضل.

ثم يتوجه الخطاب من الله سبحانه لكل بني إسرائيل، من سبق دعوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ومَن عاصره ومَن بعده...

﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ﴾ يخاطبهم صاحب النعمة

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١٣٦٦/٣ .

(٢) انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي، ص١٠٠ .

مباشرة الحي الذي لا يموت، يذكرهم بنعمته عليهم وعلى آبائهم لعلهم يرجعون ويتوبون إليه، ويؤمنون به وبرسله، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ فلا تظنوا أن الله أنجاكم ليحابيكم، بل إنه قد اختاركم لأمر القيادة، فإن أحسنتم، أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها.

لقد اختار بنو إسرائيل طريق العصيان، وتنحوا عن القيادة، وكفروا بالله وبرسله، وكذبوهم وقتلوهم تقتيلاً فضرب الله عليهم الذّلّة والمسكنة قال سبحانه: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١] وقال جل ثناؤه:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

ثم أنزلهم الله عن كرسي القيادة، وجعله لأمة القيادة، الأمة المصطفاة للنبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم. وأعطاها الخبرات والدروس والعبر المستقاة من تجارب الأمم الماضية في حمل الراية، وبين لها الطريق الصحيح والنهج القويم الذي تتبعه في قيادة البشرية إلى بر الأمان. كل هذا كان حسب سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحداً مهما كان.

المطلب الثاني
اصطفاء أمة محمد صلى الله عليه وسلم

اختار الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم لتكون خاتمة الأمم وخيرها، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل وخيرهم. اصطفى الله هذه الأمة واختارها لقيادة البشرية في مراحلها الأخيرة. بعد أن فشلت بنو إسرائيل في هذه القيادة.

وسنرى كيفية هذا الاصطفاء من خلال هذه الوقفات مع بعض الآيات والله المستعان.

الوقفة الأولى:

قال جل جلاله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣].

الكتاب هو القرآن الكريم لقوله سبحانه قبل هذه الآيات: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [فاطر: ٣١] أورثه الله لهذه الأمة، الأمة المصطفاة لشرفها ومكانتها عنده سبحانه ثم لتقدر هذه الأمة المصطفاة ضخامة التبعة الموروثة...

ثم انقسمت هذه الأمة إلى ثلاثة أقسام مصطفاة أدخلها الله في مرضاته وفسيح جنانه كلها ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

فعباد الله المصطفون الذين أقروا لله بالوحدانية ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة: منهم من سبقت سيئاته حسناته وهو الظالم لنفسه، وهم المبدوء بهم، ولعلهم ذُكِروا أولاً لأنهم الأكثر، ومنهم مَن تساوت حسناته وسيئاته وهو المقتصد، ومنهم مَن سَبقت حسناته سيئاته وهم السابقون[١]، والسَّبق يحتاج لتوفيق الله ورعايته ولذا جاء مع السابق بالخيرات (بإذن الله).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

هؤلاء كلهم -الأصناف الثلاثة- دخلوا بلا استثناء في رحمة الله وفضله وجناته. ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٩٤٤/٥. وهناك أقوال أخرى في معنى الظالم لنفسه والمقتصد والسابق يرجع معظمها إلى المعنى الذي أثبته. انظر: الطبري، جامع البيان ، ٤١١/١٠. والسيوطي، الدر المنثور، ٢٢/٧. الألوسي، روح المعاني، ٥٠٤/٢٢.

فيا لله كم هو الفضل عظيم! إنه سبحانه أدخلهم الثلاثة في ذلك الفضل الكبير، وكلهم انتهى إلى النعيم الموصوف، على تفاوت في الدرجات[1]. لعل الأمة تقدر هذه المكانة التي أنزلها الله إياها ولعلها تتمسك بكتابه العزيز الذي أورثها، وتعتصم به سبحانه وحده.

الوقفة الثانية:

قال سبحانه: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [الحج: ٧٨].

لقد اختار الله هذه الأمة، وأناط بها تكليفاً ضخماً هو إقامة شرع الله في الأرض، وهو نفسه ما عهد الله به إلى الأمم الماضية ففشلت فيه. وإقامة شرع الله في الأرض لا يكون إلا بالجهاد، جهاد النفس والأعداء والشيطان وما يخلفه من شر وفساد... ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ ﴾ جاهدوا في الله وحده لأنه اجتباكم واختاركم لهذه المهمة الضخمة من بين عباده، فلا مجال لأن تتخلوا عنها، وقد اختاركم الله لقيادة البشرية، فعليكم الأخذ بها بقوة والعمل على شكر المنعم.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ فلا تتصوروا أن الله سبحانه يشق عليكم بالجهاد، أو أنه سبحانه أراد لكم الحرج والعنت، ليس هذا مراد الله عز وجل من تكاليف دينه، بل إن دينه ذو خصيصة توافق طبيعة النفس البشرية وتوافق طاقة الإنسان، في كل زمان ومكان، هذا الدين هو امتداد لدين أبينا إبراهيم عليه السلام، إبراهيم الذي أمره ربه بالإسلام فأسلم على الفور ولم يتلكأ ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ ﴾ [البقرة: ١٣١] إبراهيم الذي دعا ربه أن يخرجكم قادة للبشر ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] فحريٌّ بكم أن تسمعوا وتطيعوا وتستسلموا

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٧٣٢/٣.

لربكم، وتخضعوا له كامل الخضوع كما فعل أبوكم إبراهيم عليه السلام فتكونوا عندئذ قد حققتم رغبته وجنتم على حسب دعوته.(١)

وحريٌ بكم أن تكونوا على قدر الاسم الذي تحملونه: الإسلام، الاسم الذي سماكم به خالقكم ورضيه لكم، وهذا الاسم وحده الذي يُعَنْوِنُ لرُتبَتِكم ومَنْزلتكم، فلا تتصرفوا بخلافه، ولا تتسمَّوا بغيره ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ سماكم الله بهذا الاسم من قبل القرآن وأيضا في هذا القرآن(٢).

والإسلام هو المطلوب مِن البشر جميعاً، لا شيء غيره، وبهذا المطلب أرسلت الرسل، وبهذا المطلب عهد إلى الأمم السابقة وإلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم كذلك، وبذلك تكون هذه الأمة متصلة الماضي بالمستقبل، ولم تكن بدعاً من الأمم، ولكن من الذي يشهد لله على البشرية بأن المطلوب منها فقط: أن تسلم لرب العالمين؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يشهد على هذه الأمة بأنه بلغها دعوة الله، وبأنه ما طلب منها إلا الاستسلام والانقياد له سبحانه. ثم تأتي هذه الأمة فتشهد على جميع الناس -الماضين منهم واللاحقين- بأن الله لم يرد منهم إلا الإسلام له وحده، وبأن الله قد بلغهم هذا المطلب بواسطة رسله ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ولكن هذه الشهادة من هذه الأمة، لا تكون إلا بأن توصل دعوته إلى كافة الناس، وهذا الأمر يحتاج إلى إعداد العدة، وعمل الليل مع النهار، ولهذا أمرها الله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام به وحده(٣)

﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

---

(١) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ٢٩٣/٣. ابن جزي، التسهيل، ٦٥/٢.

(٢) وقيل: إن الذي سماهم هو إبراهيم عليه السلام. ابن كثير، التفسير، ٣١٨/٣. ولكن السياق ويؤيده ما ورد أن المسمي هو الله سبحانه، وذلك من حديث الحارث الأشعري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من دعا بدعوى الجاهلية فإنه مِن جُثا جهنم) قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: (نعم، وإن صام وصلى فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله). أحمد، المسند، ٤٠٤/٢٨، ح(١٧١٧٠) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط ومن شاركه في التحقيق: "حديث صحيح". الترمذي، السنن، ص٦٤٣، ح(٢٨٦٣)، وقال: "حديث حسن صحيح غريب".

(٣) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٢٤٤٦/٤.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وحتى توصل هذه الأمة رسالة ربها لغيرها، لا بد أن تتمثل هذه الرسالة، واقعاً وتطبيقاً وسلوكاً، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وأهم ما يمكن أن يؤدي إلى هذا التمثل وهذا التطبيق هو الركائز الثلاثة التالية: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله. فالصلاة صلة العبد الضعيف بخالقه القويّ فإن لم تكن فقد انقطع ما بين العبد وربه، وتُرك الضعيف وشأنه، والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض، والاعتصام بالله العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد[١].

وهذه الأشياء الثلاثة هي مؤونة الجهاد المأمور به في أول الآية.

فعلى الجماعة المسلمة إذا أرادت مواجهة البشرية وإيصال دعوة الله إلى الناس، أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتعتصم بالله، الذي هو ملجؤها إذا انقطعت السبل وهذا يعني أنها لن تقوم لها قائمة إلا إذا توحدت وتراصت ونبذت الفرقة والاختلاف الذي أفسدها وجرّها إلى ذيل القافلة، وشتت جسدها، وفرق كلمتها... ثم عليها أن تعتصم بالله وحده، وتتجنب الاعتصام بغيره، فكيف ستنتصر هذه الأمة وهي تمد يدها مرة للغرب ومرة للشرق؟ وكيف ستنتصر هذه الأمة وهي تمد يدها كل يوم لخيط من خيوط العنكبوت؟ وكيف ستنتصر وهي تطلب العون من غير الله؟

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

الوقفة الثالثة:

قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

يُطلق الوسط على خيار الشيء، وعلى أعدله، وإن كان أصله في المعنى الحسي هو النصف[٢]، وإنما قيل للخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محمية،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: الراغب، المفردات، ص٨٦٩.

وقيل للعدل وسط؛ لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض(١).

وهذه المعاني كلها متحصلة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي جعلها الله أمة وسطاً، كما بيَّن ذلك صاحب الظِّلال:

(أمة وسطاً) في التصور والاعتقاد للخالق وللوجود. لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي إنما تتبع الفطرة وتغذي الروح والجسد معاً وهي الأمة الوحيدة التي تتبع التصور الصحيح عن الخالق من غير غلو ولا تقصير.

(أمة وسطاً) في التشريع والتنظيم، لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب، فلا تكِل الناس إلى سوط السلطان ولا تكِلهم كذلك إلى وحي الوجدان... ولكن مزاج من هذا وذاك.

(أمة وسطاً) في التفكير والمعرفة، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة... ولا تتبع كذلك كل ناعق، تقلده تقليد القردة المضحك.. إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارها الدائم: الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت ويقين.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(أمة وسطاً) في الارتباطات والعلاقات، لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة، إنما تقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق.

(أمة وسطاً) في المكان، حيث بدأت من مكة المكرَّمة في سرة الأرض، وفي أوسط بقاعها، بين الشرق والغرب.

(أمة وسطاً) في الزمان، تنهي عهد طفولة البشرية، من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها(٢).

﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ فقد جعلها الله أمة وسطاً لتشهد على أعمال الناس خيرها وشرها، وتبين لهم النهج القويم في ذلك، وتبين لهم أن

---

(١) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ٩٥/١.

(٢) انظر: قطب، سيد، الظِّلال، ١٣١/١.

الحق هو الاستسلام للخالق وعبادته فقط لا غير، ثم يجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ويشهد على هذه الأمة، بأنه بين لها الحق من الباطل وتركها على المحجة البيضاء، والرسول صلى الله عليه وسلم بين لهذه الأمة كل ما يهمها في مستقبلها وبين لها طريق الهداية تامة واضحة، ولم يتركها تائهة ضائعة حائرة، وذلك لتقدر الأمة أهمية المصدر الذي تستقي منه منهجها وفكرها نحو الحياة، ولتعي مكانة هذا المصدر ودقته، والدور الذي أراده أن يكون لها: قيادة البشرية وتوحيد الإنسانية.(١)

إذاً، دور الأمة أن تكون رقيبة على الأمم الأخرى تحاسبها على الزلل والخلل، وتنقيها من الدَّخل، وهكذا دور الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرقابة على هذه الأمة. قال النسفي –رحمه الله–: "ولما كان الشهيد كالرقيب جيء بكلمة الاستعلاء كقوله تعالى: ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [المائدة: ١١٧]". ثم قال –رحمه الله–: "وأُخِّرت صلة الشهادة(٢) أولاً وقُدِّمت آخراً، لأن المراد في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم"(٣).

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾

جاءت هذه الآيات معالجة لقضية تحويل القبلة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة، وهو مستقبل بيت المقدس. فلما هاجر إلى المدينة، تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، واستمر على هذا الحال بضعة عشر شهراً ثم أمر بالتوجه إلى بيت الله الحرام.(٤)

إن الله سبحانه أراد لهذه الأمة أن تتميز، وتخلُص له وحده، وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة، وأن تتعرى من كل رداء لبسته في الجاهلية، ومن كل شعار اتخذته، وأن ينفرد في حسها شعار الإسلام وحده، لا يتلبس به شعار آخر، وإن يتوحد المصدر الذي تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر.

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩/٢.
(٢) صلة الشهادة أولاً هي (على الناس) وآخراً هي (عليكم).
(٣) النسفي، مدارك التنـزيل، ٩٥/١ و ٩٦.
(٤) البخاري، الصحيح، ص ٧٠، ح(٣٩٩). مسلم، الصحيح، ١٢/٥، ح(١١٧٦).

من هنا صرَف الله المسلمين عن بيت الله الحرام فترة، ذلك أن الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة، وشابت عقيدة جَدّهم إبراهيم عقائد من الشرك، ومن عصبية الجنس، إذ كان يُعدّ بيت العرَب المقدس.. والله يريده بيت الله المقدس. لا يضاف إليه أي شعار غير شعاره.

فلما كان الاتجاه إلى البيت الحرام تلبست به هذه السمة الأخرى، صرف الله المسلمين عنه فترة، إلى بيت المقدس، ليخلّص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولاً، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول صلى الله عليه وسلم ثانياً[1] ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ إنه التسليم المطلق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في كل أمر. وهذا هو مراد الإسلام، فلا إسلام بمخالفة الله، ولا إسلام برفع شعار غير شعار الله ولا إسلام بالاحتكام لغير الله..

﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ وإن كانت هذه الفعلة وهي التحول عن القِبلة[2] وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لكبيرة، ذلك أن الالتزام بأوامر النبي صلى الله عليه وسلم ليس بسهل، إلا على الذين سلموا أمرهم إلى الله تسليما مطلقاً، فهداهم الله ووفقهم لطاعته.

مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الوقفة الرابعة:

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه هي شهادة الله لهذه الأمة بالخيرية المطلقة، الخيرية المشروطة، فهي خير في نفسها، وخير لنفسها، وخير لغيرها، والنتيجة أنها خيِّرة مختارة.

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١٣٢/١. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٩/٢.

(٢) انظر: ابن جزى، التسهيل، ٨٦/١.

قال صاحب الظّلال –رحمه الله–: "إن التعبير بكلمة (أُخْرِجَتْ) المبنيّ لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر، وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجاً وتدفعها إلى الظهور دفعاً من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدي الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله.. إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الدبيب. حركة تُخرج على مسرح الوجود أمة، أمة ذات دور خاص. لها مقام خاص، ولها حساب خاص"(١).

ولكن متى تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس؟ إن الله سبحانه قدم بهذه الخيرية وهذا الاصطفاء الذي تقف وراءه القدرة الإلهية بكل رعاية وعناية، قدم بهذا الاصطفاء ليقف بالأمة على وظيفتها التي ترفعها لهذا الشرف.. تلك الوظيفة هي وظيفة القيادة والرقابة للبشرية جمعاء، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾...

هذه هي صفات الكمال للأمة، التي أراد الله لها خلافته في هذا الكون، ولا يمكن لأمة أن تأمر وتنهى إذا لم تكن على مستوى من الرفعة والرقي والتقدم، وعلى قدر من مهارة القيادة، وحتى تأمر وتنهى، لابد لها من الوصول لمركز عال، يؤهلها للأمر والنّهي، قبل القيام بعملية الأمر والنهي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يراد به تلك الأفعال الفردية على مستوى وحدان الناس فقط، بل المراد به العمل الجماعي قبل العمل الفردي، ذلك أن الله سبحانه عندما وصف هذه الأمة بالخيرية، وصفها وصفاً كاملاً عاماً يشمل كل الأمة، ثم شرع ببيان وظيفة الأمة –كل الأمة– من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى تقوم الأمة بهذه الوظيفة لا بد لها من الأمر والنهي على مستوى أمة، أمة تأمر وتنهى.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مضبوط بقاعدة الإيمان بالله، تلك القضية الفاصلة بين هذه الأمة، وغيرها من الأمم، فمن الممكن أن تأمر أيُّ أمة بما تراه معروفاً وتنهى عما تراه منكراً ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المضبوط بالإيمان بالله لا يكون إلا لأمة اختارها الله واصطفاها على سائر الأمم، أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الأمة التي تقود البشرية إلى

---

(١) قطب، سيد، الظّلال، ٤٤٧/١.

خالقها، وتعمر الكون، بما شرع جل جلاله، لا بهوى شخصي، ولا بما شرعت.. الأمة التي تعلو على البشر بالإيمان بالله لا بالسوط والعصا، ولا بالظلم والهوى، ولا بالإفساد والإغراء..

فلا وجود لهذه الأمة إلا بهذه الصفات المتكاملة، التي إن قامت بها وجدت، بل رفعت إلى العلو. وحازت مرتبة الشرف، وإلاّ فقد فنيت وزالت، ونُحِّيت عن القيادة، كما نحي غيرها؛ لأنّ الله لا يحابي أحداً مهما كان، وإن من مقتضى سننه أن يعطي راية القيادة لمن يؤمن به ويتبع هداه، ومن لا يؤمن به ينحيه عن القيادة، ويضعه على الأرض، كائناً من كان.

وإنّ لهذه الأمة مثلاً في بني إسرائيل، الذين عهد الله إليهم بالإيمان به وحده، فكفروا وتولوا، فنحاهم الله عن القيادة بعد أن اختارهم ورفعهم وأكرمهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فأكثر أهل الكتاب فسَقوا وخرجوا عن طريق الطاعة وضيعوا الأمانة فضاع عليهم الخير الكثير، وما ذاك إلا بسبب كفرهم بالله، وليس هذا الكفر لهم كلهم، بل إن منهم بعض المؤمنين، ولكن حتى مع وجود هؤلاء القلة، ضاع عليهم ذاك الشرف.

ولهذا فالأمة مطالبة بالكثير الكثير، من العمل الدؤوب والسعي المستمر، ومواصلة الليل مع النهار، حتى تصل لهذا المركز، المركز الذي يجعلهم يقدمون لغيرهم ، لا أن يأخذوا منهم، يقدمون لهم ذلك الخير الذي بعثوا به، لا أن يأخذوا منهم حثالة أفكارهم.

لقد قامت هذه الأمة بدورها الذي أخرجها الله إليه، قامت بالقيادة عندما أطاعت مولاها واتبعت نبيها صلى الله عليه وسلم، فحلّقت في العُلو، في وقت قصير لا يُقاس بعمر الزمن شيئاً، وقدّمت للبشرية الكثير الكثير، وافتتحت البلدان، وأصبحت الآمِرة الناهية. فرضي الله عنها ورضيت عنه، قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [النمل: ٥٩]. قل يا محمد –وكل من يتبع محمداً– الحمد لله على كل شيء، الحمد لله الذي هدانا للإسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، سلام الله على عباده المصطفين الذي منهم هذه الأمة(١)، كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢].

(١) قيل: إن هذه الآية في الأنبياء. انظر: الرازي، التفسير الكبير، ٥٦٢/٨. ولكن العموم أولى، فهي تشمل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وكل من اصطفاه الله. ابن كثير، التفسير، ٤٩٠/٣.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ثم عادت هذه الأمة فضيعت عهد الله، واتبعت غير هداه، واحتكمت لقوانين الشرق والغرب، فخابت وخسرت وتزلت من عليائها إلى هذا الدرك من الذل والهوان الذي وصلت إليه اليوم. فأصبحت قصعة مستباحة للذليل قبل العزيز، وللضعيف قبل القوي، وللقاصي قبل الداني.

لقد صارت الأمة الإسلامية اليوم، عبارة عن دول متناثرة متناحرة يفصل بينها حدود جغرافية مصطنعة، ورفرفت في عليائها رايات القومية.

وأصبحت تتسول على موائد الفكر الإنساني بعد أن كانت منارة تهدي الحيارى والتائهين والظمأى الذين أحرقهم لفح الهاجرة القاتل، وأرهقهم طول المشي في التيه والظلام.

فما هو طريق الرجوع؟

لَمّا كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل، وكانت أمته خاتمة الأمم، شاء الله أن تكون لها القيادة الأخيرة. حتى لو تخلت عنها لفترة، فإنها ستعود إليها بإذن الله، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٨-٩].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية
556961

وأما طريق الرجوع، فهو ما صلح به أول هذه الأمة، ويبدأ من الأفراد أنفسهم، وذلك بأن يحققوا معنى الإسلام في ذواتهم، فلا تكون الكلمة العليا في حياة المسلم إلا لله وحده. وهذا هو مقتضى الإيمان بالله وعبوديته. فإذا تحقق ذلك في نفوس العصبة المسلمة، نزل نصر الله، وعادت كلمة المسلمين على ما كانت عليه، بل وأفضل بإذن الله، قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥] فطريق النصر إذاً هو العبودية التامة لله وحده. فهل تعي ذلك هذه الأمة المصطفاة؟

المبحث السادس
اصطفاء الشهداء

إنَّ إقامة شرع الله في الأرض، وإيصال دعوة الله إلى الناس، بحاجة إلى جهاد يقوم على التضحية والصبر... جهاد هدفه الوحيد، إعلاء كلمة الله، ولهذا قال سبحانه في بيان أجر المجاهد: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

ثم إن الله سبحانه اصطفى من المجاهدين الشهداء، فقال سبحانه: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

جميع الحقوق محفوظة

إن الشهادة عند الله من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه، والمقربون من عباده، يصطفيهم الله اصطفاء من عباده المؤمنين المجاهدين.

وفي هذه الآية التي بين أيدينا [آل عمران: ١٤٠] يبيّن سبحانه أن مداولة الأيام بين الناس، بين عباده وغيرهم، هزيمة ونصراً، لِسببين، أولاً: إظهار المؤمن مِن المنافق، والطائع مِن العاصي.. لِيُعلِمَ الناسَ بالمؤمن من الكافر، فيُمايز بينهم. وثانياً: ليتخِذَ مِن عباده المؤمنين شُهداء. قال ابن القيم رحمة الله: "وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو(١)".

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ هذا إشارة إلى ما حصل للمسلمين في أُحد، والقرح الذي أصاب الكفار، قيل: هو ما أصابهم

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ٣/٢٢١.

في أول المعركة، وقيل: هو ما أصابهم في بدر[١].

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وعلم الله أزلي، ولكن لِيُظهر هذا في الوجود بحيث يتميز المؤمن من غيره[٢].

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ يصطفيهم الله ويختارهم وينتقيهم انتقاءً، ويستخلصهم استخلاصاً يستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس، فيؤدون الشهادة. يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا مَطعن عليه، ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس. يَطلب الله منهم هذه الشهادة، على أن ما جاءهم من عنده الحق، وعلى أنهم آمنوا به، وتجرّدوا له وأعزُّوه حتى أرْخَصوا كل شيء دونه، وعلى أنّ حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق، وعلى أنهم هم استيقنوا هذا، فلم يألوا جهداً في كِفاح الباطل وطرده مِن حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم، وتحقيق منهج الله في حكم الناس.. يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت، وهي شهادة لا تقبَل الجدال والمحال!

وكل من ينطق بالشهادتين لا يقال له إنه شهد، إلا أن يؤدي مدلولهما ومقتضاهما، هذا المدلول هو: ألاّ يتخذ إلا الله إلهاً ، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله، فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد، وأخص خصائص العبودية التلقي من الله، ومدلولهما كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد صلى الله عليه وسلم بما أنه رسول الله ولا يعتمد مصدراً آخر للتلقي إلا هذا المصدر..

ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض، فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله، فهو إذن شهيد أي شاهد، طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها، واتخذه الله شهيداً، ورزقه هذا المقام..

الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

---

(١) انظر: ابن جزي، التسهيل، ١٥٩/١.

(٢) انظر: ابن كثير، التفسير، ٥٤٢/١

وهذا هو مدلول شهادة أن لا أله إلا الله ومقتضاها، لا ما انتهى إليـــه مدلـــول هـــذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع[١].

إن المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين، شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء، وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر... وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل مِن نفسه ومن خُلُقه ومِن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين، صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً، يشهد لهذا الدين بالخيرية والأفضلية على سائر مـا في الأرض مـن أنظمـة وأوضاع وتشكيلات.

وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قـاعدة حياتـه، ونظـام مجتمعه، وشريعة نفسه وقومه، فيقوم مِن حوله مجتمعٌ تُدبَّر أموره وفق المنهج الإلهي القـويم.. وجهاده لقيام هذا المجتمع، وتحقيق هذا المنهج، وإيثاره الموت في سبيله على الحيـاة في ظـلّ مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية.. جهاده هو شهادته بأن هذا الديـن خير من الحياة ذاتها وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء! ومن ثم يُدعى (شهيداً)..

ومَن لم يؤدِّ هذه الشهادة لديه فكتمها فهو آثمٌ قلبه، فأما إذا ادّعى الإسلام ثم سـار في نفسه غير سيْرة الإسلام، أو حاولها في نفسه ولكنه لم يؤدها في المجال العام، ولم يجاهد لإقامـة منهج الله في الحياة إيثاراً للعافية، وإيثاراً لحياته على حياة الدين، فقد قصر في شـهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين، شهادة تصد الآخرين عنه، وهم يرون أهله يشهدون عليـه لا لـه ! وويل لمن يصد الناس عن دين الله، عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الديـن ومـا هـو مـن المؤمنين[٢] ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

تلك هي الشهادة التي يريدها الله، وتلك هي الشهادة التي يكون أصحابها مصطفَين عند الله، مختارين من بين عباده، وهم كالشُّهْد المصفّى، جعلنا الله منهم.

---

(١) قطب، سيد، الظلال، ٤٨١/١، بتصرف قليل.

(٢) قطب، سيد، الظّلال، ٤٠٢/١، بتصرف قليل.

وبهذا الحديث عن الشهداء، نكون قد انتهينا من التطواف في ثنايا الاصطفاء المتعلق بالإنسان، بدءاً من اصطفاء الإنسان من حيث هو إنسان، ومروراً باصطفاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، واصطفاء الدين والأمم وانتهاءً باصطفاء الشهداء.

ونطوي صفحة الاصطفاء الإنساني، ونمضي راشدين لنفتح صفحة أخرى من صفحات الاصطفاء القرآني، ألا وهي اصطفاء الملائكة الكرام البررة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الثالث

اصطفاء الملائكة

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

تمهيد

خلق الله الملائكة وجعل الإيمان بهم من الإيمان به، فلا يصح إيمان المؤمن إلا إذا آمن بالملائكة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، فالإيمان بالملائكة جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله. وهذا يرمز إلى أهمية هذه المخلوقات ومكانتهم عند الله عز وجل.

والملائكة هي مخلوقات نورانية عظيمة وجميلة، وأخلاقهم كريمة وشريفة[1]. أناط الله بهم مهمة تنفيذ أوامره، فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم. ويصعدون إليه بالأمر، قال سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [فاطر: ١] جبلهم الله على الطاعة والعبادة، لا يكلّون ولا يملّون من عبادة ربهم جل جلاله ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت: ٣٨]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ولقد بوّأ الله الملائكة منزلة عظيمة، ومكانة رفيعة. تلكم هي مكانة الاصطفاء الإلهي، وهذا ما سيتضح لنا خلال سيْرنا في ثنايا هذا الفصل، والله الموفّق.

المبحث الأول
اصطفاء الملائكة بشكل عام

إن الله سبحانه قد اصطفى الملائكة، وفضلهم على كثير من المخلوقات، وأوكل بهم أعمالاً جليلة وعظيمة تدل على مكانتهم وشرفهم عند ربهم ومليكهم، والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تتحدث عن الملائكة، سواء من حيث صِفة خلْقهم أو الإيمان بهم أو أوصافهم

---

(١) انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٧٩.

وأخلاقهم أو الأعمال التي يقومون بها... ولكنا سنأخذ بعض هذه الآيات، خاصة تلك التي تشير إلى اصطفائهم وتكريمهم وقربهم من الله عز وجل.

من هذه الآيات قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

يجيء الحديث عن الملائكة في السُّوَر المكية نظراً لكون الإيمان بهم رُكناً من أركان الإيمان بالله تعالى الذي جاءت السور المكية لمعالجته وتنقيته من الشوائب والدَّخَل الذي تراكم عليه في الجاهلية، ذلك أنَّ الناس في الجاهلية أدخلوا مع الله شركاء في العبادة، وكان من بين هؤلاء الشركاء الملائكة الذين ظن مشركو العرب أنهم بنات الله!! وجاء القرآن الكريم فوضع الأشياء في مواضعها. ووضع الملائكة في مكانها الصحيح ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون﴾.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فالملائكة إذاً مخلوقات لله، من ضمن عباده، إلا أن الفرق بينهم وبين بقيّة عباده، هو المكانة التي جعلها الله لهم ﴿بل عبادٌ مكْرمون﴾ كرَّمهم الله واختارهم واصطفاهم، إنها مرتبة الشرف التي يصطفي الله عز وجل لها من يشاء من عباده.

ومِن هنا كان منشأ غلط المشركين، حيث ظنوا أن الملائكة بنات الله لقربها وكرامتها عند الله، فخلطوا بين الاصطفاء والبنوَّة، سبحان الله عما يشركون.

واصطفاء الملائكة وإكرامهم شيء ثابت ملازم لهم لا ينفكّ عنهم، لم يحدث لهم بعد أن لم يكن، وهو ما يُستفاد من الإتيان بالجُملة الاسمية ﴿بل عباد مكْرمون﴾.

والملائكة بلغوا منزلة رفيعة في الاصطفاء، ذلك أن الله عز وجلّ شرَّفهم بالتَّكريم، فهم في مرتبة عالية شريفة، "وكل شيء شرُف في بابه فإنه يوصف بالكرم".[1]

---

(١) الراغب، المفردات، ص٧٠٧.

إنَّ دعوى البُنوَّة لله –سبحانه– دعوى اتخذت لها عِدَّة صـــوَر في الجاهليـات المختلفة، فقد عُرِفت عند مشركي العرَب في صورة بُنوّة الملائكة لله، وعند اليـهود في صورة بُنوَّة العُزيْر لله، وعند النَّصارى في صورة بنوَّة المسيح لله. وكلها من انحرافات الجاهليـة في شتى الصُّوَر والعصور. والمفهوم أنَّ الذي يعنيه السياق هنا هو دعـوى العـرب في بنـوَّة الملائكة.(١)

والسِّياق هنا يردُّ على هؤلاء المشركين ويبين لهم صِفة الملائكة، إنهم عِبـادٌ مكْرمـون مصطفون عند الله عز وجل. وإنهم لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم بـه ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ هم للرحمن في غاية الطاعة قولاً وعملاً. وجاء التـأكيد بأنهم منفذون لأوامره سبحانه بعد نفي تقديمهم بين يدي الله قولاً، لأنّ النـاس في العـادة لا ينفّذون أوامر رؤسائهم وأمرائهم إلا بعد أخذ وردّ ومَشورة، فأراد الله سبحانه نَفْـيَ هـذه الصُّورة عن الملائكة، فهُم منفّذون لأوامره عاملون لها من غير جدال ولا نقاش. والله سبحانه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، فيعلم إن كانوا ينفذون أوامره أو يقصّرون فيها.

ومِن صِفة هؤلاء المصطفين أنهم لا يشفعون بين يدي الله إلا لمن ارتضـاه الله ورَضـي الشفاعة فيه ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ والذي يشفع عند الله لا بُدّ وأن يكون وجيهاً عند الله، مقرَّباً إليه، مصطفى عنده سبحانه، والملائكة كذلك، وهم عندما يشفعون بين يدي الله في بعض خَلْقه، يقفون وقفة الذُّلّ والانكسار، مشفقون خائفون وَجِلون من الله، لأن من عرفـه سبحانه حقَّ المعرفة خافه، وأشفق من خشيته ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾.

وبعد كل طاعتهم تلك لبارئهم، وتمام عبادتهم له، فإنهم يعرفون مقامهم هذا، وأنهم عبيد لله، فلا يدَّعي أحد منهم الألوهية –على ما ظنّ المشركون– وإن ادَّعى أحد منهم الألوهيـة قصمه الله وجعل مأواه جنهم التي هي مأوى كل ظالم ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جنهم كذلك نجزي الظالمين﴾ قال ابن كثير –رحمه الله–: "وهذا شرط، والشرط لا يلـزم

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٤/٢٣٧٥.

وقوعه، كقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]".[١]

هو ذا مقام الملائكة، مخلوقات اصطفاها الله عز وجل، وكرمها ونقاها وأخلصها لنفسه وهم في كمال الطاعة لله، وتمام الإشفاق من خشيته، لا كما توهم المشركون بأنهم بنات الرحمن، سبحانه وتعالى عما يشركون.

ومن تمام طاعة الملائكة لله، أنهم لا يأنفون أن يكونوا عبيدا لله، قال سبحانه مخبرا عنهم: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

إن الملائكة لا تأنف من عبادة الله سبحانه، والعبودية لله من أشرف مقامات الخلق. ذلك أن المخلوق إذا كان عبدا لله ارتفعت منزلته عند بارئه، وحاز شرفا عظيما. وهذا ما كان للملائكة الكرام، حيث اتصفوا بالعبودية لله تعالى، فحازوا شرف القرب منه سبحانه ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون﴾ أي: لن يأنف المسيح أن يكون عبدا لله، ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبادا لله، فحذف ذلك لدلالة ﴿عبدا لله﴾ عليه إيجازا.[٢]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

و﴿المقربون﴾ يحتمل أن يكون وصفا كاشفا، وأن يكون مقيدا، فيراد بهم سادة الملائكة كجبريل وميكائيل... وعليه فمن دونهم من الملائكة يثبت لهم عدم الاستنكاف عن العبودية بدلالة الأحرى.[٣]

إن الملائكة حينما اتصفوا بصفة العبودية لله أكرمهم الله سبحانه بالقرب منه، ومقام القرب منه سبحانه مقام سامق، تشرئب إليه الأعناق، وتهفو إليه القلوب، ولا يتبوؤه إلا من اصطفى الله وكرم.

---

(١) ابن كثير، التفسير، ٢٣٨/٣.

(٢) انظر: النسفي، مدارك التنزيل، ٣٨٢/١.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦١/٦.

ولهذا فإن الله سبحانه يُشهد هؤلاء المقرّبين سِجلّ أعمال الأبرار من العباد، إكراماً لهؤلاء الأبرار، قال سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [المطففين: ١٨-٢١]، لقد أكرم الله الأبرار بأن جعل كتابهم في عليين، يشهده الملائكة المقرّبون الذين اصطفاهم الله وقرّبهم إليه.

ومشاهدة المقرّبين مِن الملائكة توحي بمكانة الملائكة والأبرار جميعاً، حيث إن الله سبحانه أشهد على كتاب الأبرار ملائكته المقرّبين، فخصّهم من بين الخلْق بهذا الفضْل، ينظرون إلى كرائم الأفعال والصِّفات المسطورة في كتاب الأبرار، وهو كذلك يدلّ على شرف الأبرار، حيث إنه سبحانه جعل كتابهم موضع مشاهدة ملائكته المقرّبين.(١)

لقد كرّم الله الملائكة وشرّفهم، بأن جعل شهادتهم وإقرارهم بوحدانية الله حجّةً على العالمين، فقال عزّ شأنه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ﴾ [آل عمران: ١٨]. هذه الشهادة هي أعظم شهادة في الوجود وأقواها، وأقومها وأعلاها، إنها الحقيقة الأولى التي يقوم عليها التصوُّر الاعتقادي في الإسلام حقيقة التوحيد: توحيد الألوهية.. وتوحيد القِوامة، القِوامة بالقِسط ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ إن القوامة بالقسط من مستلزمات الألوهية. فلا عدل في الكون إلا بتحكيم شرع الله، وغير ذلك يكون الظُّلم والجَوْر والضياع.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ففي هذه الآية –آية آل عمران– قرن الله تعالى شهادة الملائكة وأولي العلم بشهادته سبحانه التي سجلها في كتابه، وسطرها على صفحات مكوّناته، وفي ذلك وجوه من العِزّة والكَرامة، والشرف والمكانة للملائكة الكرام وأولي العلم العِظام الذين قرنهم الله تعالى بملائكته:

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٦٢٦/٤.

أولاً: أنه سبحانه استشهد بشهادة نفسه جلّ وعلا وهو أجلّ شاهدٍ، وكفى بالله شهيداً، ثم بخيار خلْقه وهم الملائكة وأولو العِلم، وكفاهم بذلك شرَفاً وفَضْلاً على غيرهم من المخلوقات.

ثانياً: أنه سبحانه لا يستشهد مِن خلْقِه إلا الشهود العدول البررة، وهذه الآية دليل على عدالتهم وثِقتهم، وصِدقهم وأمانتهم وتزْكِيتهم وتنْقِيتهم.

ثالثاً: أنه سبحانه استشهد بالملائكة وأولي العِلْم على أجلّ مشهود، وأعظم معهود، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقِوامة بالقِسط، ومِن المعلوم بداهةً أنّ العظيم القَدْر إنما يستشهد على الأمر العظيم أفاضلَ الخلْق وسادهم وكِرامهم.

رابعاً: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجّة على المنكرين، فهم -أي الملائكة وأولو العلم- عنده سبحانه بمنزلة أدلته وبراهينه الدالة على توحيده جلّ جلاله.[1]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

هذا هو مقام الملائكة الكرام، إنه مقام الاصطفاء الإلهي، والتكريم الرباني المطلق، والقُرب من جنابه جلّ جلاله.

والملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، قال سبحانه: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١].

وإذا أردتَ أن تعلم كثرتهم فاسمع ما قاله النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن البيت المعمور الذي في السماء السابعة: (وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملَك لا يعودون إليه).[2]

واسمع -يا رعاك الله- إلى ما قاله صلّى الله عليه وسلم عن جهنم -نعوذ بالله منها-: (يُؤتى بجنهم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملَك يجرُّونها).[3]

---

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف، ٣٧٣/١.

(٢) البخاري، الصحيح، ص٥٣٥، ح(٣٢٠٧)؛ مسلم، الصحيح، ٣٨٧/٢، ح(٤٠٩) واللفظ له.

(٣) مسلم، الصحيح، ١٧٦/١٧، ح(٧٠٩٣).

إنَ هذا كله يشير إلى كثرة الملائكة البررة، وهم مقسّمون إلى أصناف شـــتى، يقوم كل منهم بعمله المخصص له، يديرون كلّ ذرة في هذا الوجود، يديرون كـــل شيء في هذا الكون، صغُر أو كَبُر، تنفيذاً لأمـــر الله سـبحانه ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [فاطر: ١]، فهم رُسُل الله سبحانه وتعالى الذين يباشرون تنفيذ ما كان في عِلْم الله.

وفي الأسطر التالية سنقف على أصناف الملائكة في حدود ما يســمح بـــه البحـــث في اصطفائهم، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الثاني
بعض أصناف الملائكة المصطفاة

المطلب الأول: الملائكة الحفظة

إنّ الإنسان يمرّ في رحلة طويلة جداً، بدْءاً من خلْقه وتكوينه، وانتهاءً بدخوله أحد المنزلين: الجنة أو النار. وهذه الرحلة الطويلة يديرها ويدبّرها الملائكة البرَرَة، تنفيذاً لأمر الله جلّ شأنه.

لقد أوكل الله بالإنسان ملائكةً كِراماً يحفظونه ويدبرون أمره ويشرفون على تكوينه حتى قبل مجيئه إلى هذه الدنيا. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ [الطارق: ١-٧].

إنّ الأسرار الرهيبة المتعددة غير المحصورة والتي تشاهد في جسم الإنسان لتشير بوضوح إلى تدخُّل مقصود وإلى قوى تعمل داخل أجهزة جسم الإنسان بإتقان وإحكام يعجز عن إدراك مداه العقل البشري المحدود.(١)

إنه لشرَف عظيم ومَرتبة عالية أن يعهد الله للملائكة الكِرام بحِفْظِ الأنفُس؛ ذلك أن الحفظ لا يُعهد به إلا إلى حافظ أمين، بلغ مرتبة في الشرف والكرم.

ولا يتوقف حفظ الملائكة الكِرام على ما تقوم به داخل جسم الإنسان بل إنها تحفظه من كل شيء يريده بضُرّ، إلا من شيء أراده الله له، قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال سبحانه: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) إن جسم الإنسان مليء بالأسرار العجيبة، وقد بيّن العلماء بعضاً منها، انظر -مثلاً-: نوفل، عبد الرزاق، عالم الجن والملائكة. البار، محمد علي، خلق الإنسان بين الطبّ والقرآن.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١٠-١١].

وهذا الحفظ يَشعر به الإنسان في حياته، فالدُّنيا مليئة بالمخاطر والمهلِكات التي تحيط بهذا الإنسان الضعيف، وهو يعيش بينها بكل أمان واطمئنان، ولا بد أن يتعرض الإنسان –أي إنسان– إلى خطر داهم يحلّ به، يكاد يودي بحياته، فإذا بالقُدرة الإلهية تتدخل لتنقذه مِن هذا الخطر من غير أن يعرف، كيف كان ذلك؟ إنهم الحَفَظة الذين جعلهم الله لهذا الإنسان.(١)

بل إن الإنسان كثيراً ما يتحرك في اتجاه على غير إرادته، يدفعه دَفعاً من غير معرفة سبب ذلك، ولكن بعد أن يعرف النتيجة، يتأكد أن هناك قوة ما، تحافظ عليه قد غيّرت اتجاهه من شر مؤكد كان سيقع عليه إلى سلامة وأمن.

هؤلاء إذاً هم الحَفَظة الذين يحفظون الإنسان من أمر الله، وهم أمناء على خلْقه، اصطفاهم الله لهذا الأمر، وحصّنهم من تحريف الخلق بهذا الفعل. وقد أوكَل الله بالإنسان ملائكة آخرين حفظة، يكتبون ما يصدر عن الإنسان ليحاسَب عليه يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

[الانفطار: ٦- ١٢].

في هذه الآيات يوجه الله العتاب المبطَّن بالوعيد للإنسان ﴿ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾ ويكشف لنا ربنا عز وجل بعد ذلك عن علّة الغرور والتقصير الذي منَع الإنسان من الإيمان ﴿كلا بل تكذبون بالدِّين﴾ إن العِلَّة وراء هذا التقصير هي التكذيب بيوم الدين، يوم الحساب والجزاء على الأعمال وكل ما صدر عن الإنسان في حياته، ولكن من الذي يقوم بتسجيل ما يصدر عن الإنسان حتى يحاسَب عليه يوم

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٣/١٠١.

القيامة؟؟[١]

لقد أوكل الله هذه المهمة بملائكة، اختارهم الله واصطفاهم لكتابة الأعمال، وهم حفظة أمينون، كرام، لا يتركون شاردة ولا واردة إلا كتبوها وهم على علم بما يفعل الناس، وليسوا جهالا ﴿وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾.

ولقد بين ابن عاشور أن الحفظ هنا هو بمعنى الرعاية والمراقبة وهو بهذا المعنى يتعدى إلى المعمول بحرف الجر وهو (على) لتضمنه معنى المراقبة والحفظ، والحفيظ الرقيب، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشورى: ٦]، وهذا الاستعمال هو غير استعمال الحفظ المعدى إلى المفعول بنفسه، فإنه بمعنى الحراسة، نحو قوله سبحانه: ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] فالحفظ بهذا الإطلاق (لحافظين) يجمع معنى الرعاية والقيام على ما يوكل إلى الحفيظ والأمانة على ما يوكل إليه. وحرف (على) فيه للاستعلاء لتضمنه معنى الرقابة والسلطة. وأما وصف الكرم فهو النفاسة في النوع، فالكرم صفتهم النفسية الجامعة للكمال في المعاملة وما يصدر عنهم من الأعمال.[٢]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

قال صاحب الظلال –رحمه الله–: "ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة، فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم.. (كراما).. ليستجيش في القلوب إحساس الخجل والتبجل بحضرة هؤلاء الكرام. فإن الإنسان ليحتشم ويستحي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل في لفظ أو حركة أو تصرف.. فكيف به حين يشعر أو يتصور أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة (كرام) لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال والفعال؟!

إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر بإقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الإدراك المألوف..".[٣]

---

(١) انظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ٣٩٠/٦.

(٢) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨٠/٣٠.

(٣) قطب، سيد، الظلال، ٣٨٥١/٦.

هؤلاء إذاً هُم الحفظة، الكِرام الكاتبون، الذين اصطفاهم الله لهذه المهمة، وكرّمهم بها، ونظمهم في سلك المصطفين.

المطلب الثاني: رسُل الملائكة

إنّ الله أوجد الإنسان في هذه المعمورة لدور عظيم يقوم به، هو عمارة الأرض بما شرع الله عز وجل، لهذا فقد اصطفى الله ملائكة من ملائكته تقوم بمهمة تبليغ الرُسُل الأصفياء من البشر وحيَ الله وشرعه، وتنفذ أوامره بكل دقة وأمانة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحج: ٧٥-٧٦]. فالله القويَ العزيز هو الذي يصطفي الرُسُل من الملائكة والناس لتبليغ شرعه، وتطبيق أوامره، وهؤلاء المصطفون هم خيرة خلْقه إذا نظرنا إلى من اصطفاهم وهو الله القوي العزيز.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

واصطفاء الله عز وجل واختياره ليس كاصطفاء غيره واختياره، لأنه سميع بصير عليم بأحوال المخلوقات التي خلقها، واصطفاؤه هذا صادر عن حِكمة وعِلم لا عن مجازفة وتقصير ونقْص، ذلك أنّ الله المتصف بصفات الكمال هو الذي يصطفي. والاصطفاء دائماً وأبداً له وحده ليس لغيره.

قال العلاّمة ابن عاشور –رحمه الله–: "وجُملة ﴿إن الله سميع بصير﴾ تعليل لمضمون جملة ﴿الله يصطفي﴾ لأن المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختص بالاصطفاء. وليس لأهل العقول ما بلغت بهم عقولهم من الفِطنة والاختيار أن يطلعوا على خفايا الأمور فيصطَفُوا للمقامات العُليا مَنْ قد تخفى عنهم نقائصهم بلْه اصطفاء الحجارة الصماء"(١).

إن استمرارية الاصطفاء من الله عز وجل للرسل من الملائكة والناس ﴿الله يصطفي﴾ تشير إلى أهمية الإنسان في هذا الوجود، إذ تتعاهده رسل الله، يتوالون عليه تترى، من لدن وجوده على هذه الأرض إلى قيام الساعة، لأن رحمة الله بهذا المخلوق لا تنقطع، فالله عز وجل دائم التذكير لهذا المخلوق بالشرع الذي يناسبه، والمنهج الصحيح الذي يجب عليه أن يسلكه، ولكن الإنسان يأبى، يأبى إلا أن يجحد ويكفر بالله!!

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/ ٣٤٤.

ومن هذه الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- التي اصطفاها الله من الملائكة، جبريل عليه السلام أمين الوحي وروح القُدُس والذي جاءت له عدة أوصاف في القرآن الكريم، قال الله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ ﴾ [التكوير: ١٥- ٢٥].

في هذه الآيات يقسم ربنا تبارك وتعالى ببعض المشاهد الكونية، على طبيعة كتابه الكريم، وصفة الرسول الذي يحمله والرسول الذي يتلقاه، فهو قَسَم بشيء عظيم على شيء عظيم.

فقد أقسم سبحانه بالخُنَّس الجوارِ الكُنَّس.. وهي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي بخفة وطلاقة، وهي بذلك تشبه الظِّباء وهي تجري وتختبئ برشاقة في كناسها وترجع من ناحية لأخرى، في حركة جميلة رشيقة.

وأقسم سبحانه كذلك بالليل إذا عسعس.. أي إذا أظلم[1]، وبالصُّبح إذا تنفس، وكل هذه المشاهد الكونية هي مشاهد عظيمة حقا تحتاج إلى أن يقف المرء عندها طويلاً متأملاً، لِمَ أقسم الله تعالى بها؟!

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

لقد جاء القَسَم بهذه المشاهد الرائعة لتقرير أمور عن طبيعة كتاب الله الكريم، وجبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، والذي يعنينا هنا هو ما قرَّره النص من صفات لناقل الوحي: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ ﴾ لقد أثنى الله على جبريل عليه السلام بعدة أوصاف:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ والرسول الكريم هنا هو جبريل عليه السلام فقد اصطفاه الله عز وجل لتبليغ هذا الكتاب العظيم لأفضل الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وإضافة القول له عليه السلام باعتبار تبليغه، وليست الإضافة هنا للإنشاء.[2]

---

(١) انظر هذه المعاني عند: ابن كثير، التفسير، ٤/٦١٦. قطب، سيد، الظّلال، ٦/٣٨٤١.

(٢) انظر: النسفي، مدارك التتريل، ٥/٣٣٠.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ وهو عليه السلام ذو قوة مما يوحي بأن هذا القول يحتاج في حمله إلى قوة.(١)

وهو عليه السلام ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ له مكانة عظيمة ومترلة رفيعة عند ذي العرش، قال ابن عاشور –رحمه الله-: "وعُدل عن اسم الجلالة إلى ﴿ذي العرش﴾ بالنسبة إلى جبريل لتمثيل حال جبريل ومكانته عند الله بحالة الأمير الماضي في تنفيذ أمر الملك وهو بمحل كرامته لديه".(٢)

وجبريل عليه السلام ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ مطاع في الملأ الأعلى له كلمته وشرفه ومكانته، وهو أمين فيما يحمل ويبلغ من وحي لأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام.

فيا له من شرف عظيم ناله هذا المخلوق! لكنه الاصطفاء الإلهي والتكريم الرباني الذي لا يماثله تكريم ولا اصطفاء. وإنه لشرف عظيم حقاً لهذا الإنسان، أن يترل الله عليه هذا المخلوق العظيم، جبريل عليه السلام ليبلغه رسالة ربه، إن هذا ليشي بضخامة الحمل الذي يحمله والرسالة التي نزل بها إلى أفضل الخلق المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم.

إن علاقة الملائكة مع رسل الله لا تقف عند حدود تبليغ شرع الله، بل إن لهم أعمالاً أخرى كترولهم بالبشرى على رسل الله وعلى المؤمنين. ونزولهم بالعذاب والعقاب على من خالف رسل الله وكفر بهم وتنكب طريقهم. قال الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٣٨٤٢/٦.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٥٦/٣٠.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٢٤- ٣٧].

تُحدثُنا هذه الآيات عن ذلك المقطع من حياة أبي الأنبياء، إبراهيم عليه الصلاة والسلام. حيث أرسل الله رسله من الملائكة إلى قوم لوط عليه السلام المجرمين، ليهلكوهم، وفي طريقهم عرّجوا قليلاً على إبراهيم عليه السلام.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ لقد اصطفاهم الله لهذه المهمة، وهم مكرمون. وإكرامهم هذا إما لأنهم كذلك عند الله، ذلك أن الله سبحانه اصطفاهم وخصهم بمزيد فضل، وإما أن يكون إكرامهم بالنظر إلى إكرام إبراهيم عليه السلام لهم، كما هو ظاهر من القصة[1]، حيث سارع إبراهيم عليه السلام إلى إكرامهم والترحيب بهم، وجاءهم بعجل سمين مشوي، فقرّبه إليهم ودعاهم له، ولكنهم لم يأكلوا منه، وأخبروا إبراهيم عليه السلام بأنهم آتون لتحقيق أمرين، تنفيذاً لأمر الله عز وجل، وهذان الشيئان هما: بشارة إبراهيم وزوجه بمولود، وهو إسحاق عليه السلام[2]، وإلحاق العذاب بقوم لوط.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

المطلب الثالث: ملائكة البُشرى

إن الملائكة المصطفين لا يقف تأييدهم للرسل والأنبياء فقط، بل إنهم يتنزلون بالسكينة والطمأنينة على الذين آمنوا واستقاموا ويبشرونهم بأفضل الجزاء، الجنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فُصّلت: ٣٠] فما أعظمها من نعمة أن تنزل ملائكة الله المصطفاة على الذين آمنوا، تشجعهم وتعينهم على تقبل كل أحداث الحياة وتبعد عنهم الخوف من كل ما يخيف الإنسان في الدنيا والخوف من الأخرى بكل ما فيها، وتحول بينهم وبين الحزن الذي يصيب الإنسان، وتثير فيهم البشرى، وأيّ بشرى؟ إنها البُشرى بالجنة، نسأل الله الجنة.

ولا يقتصر تأييد الملائكة للمؤمنين بالطمأنينة وعدم الخوف والحزن، وبالبشرى بالجنة، بل يتعدى إلى التأييد بالقتال مع المؤمنين ضد أعدائهم، في ساحة المعركة قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٣٣٨٢/٦. ويقال: إن هؤلاء المكرمين هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل. انظر: ابن كثير، التفسير، ٣٠١/٤، ولا دليل على تعين هؤلاء فقط.

(٢) انظر: أبا حيان، البحر المحيط، ٥٥٦/٩. أبا السعود، إرشاد العقل السليم، ٩/ ١٣٧.

رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

وما أروع ما يقوم به حملة العرش ومَن حوله وهم في قُرب من الجليل جلّ وعلا، إذْ يَعْلَم حملة العرش الكريم ومن حوله أنهم في هذا الموقف أكثر استجابة للدعاء وأكبر أملاً في الرجاء، فلا تتجه إلى الله إلا بالتسبيح والحمد والإيمان والاستغفار لعباده والدعاء لهم، وما أفضل دعاءهم! ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر: ٧-٩] فيا لشرف المؤمن ويا لشرف هذه الملائكة وكرمها، ويا لعظم وروعة دعائهم للمؤمنين، إنه حقاً الاصطفاء الإلهي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إن رحلة الإنسان مع الملائكة الكرام رحلة طويلة عظيمة، مليئة بالعجائب، فهي ترعى هذا المخلوق، وتحفظه وتعينه، وتنفذ أمر الله فيه طيلة هذه الرحلة الطويلة، وهذا يحتم على الإنسان أن يعرف فضلهم، ومكانتهم العالية، ومنزلتهم الرفيعة، منزلة الاصطفاء الإلهي، إن الملائكة حقاً سفراء الله بينه وبين خلقه، قال سبحانه: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس: ١١-١٦] فهم سفراء الله، اصطفاهم الله عز وجل، وجعلهم كِراماً بررة.

ولهذا حثّ النبي صلى الله عليه وسلم ورغّب في بلوغ منزلتهم، فقال عليه السلام: (الماهر بالقرآن مع السَّفَرَة الكرامِ البَرَرَة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاقّ له أجران).[(١)]

---

(١) البخاري، الصحيح، ص٨٨٠، ح(٤٩٣٧). مسلم، الصحيح، ٣٢٥/٦، ح(١٨٥٩) واللفظ له.

وأخيراً: لقد تبين لنا كيف اصطفى الله عز وجل ملائكته وفضلها على كثير من مخلوقاته، وآمل أن أكون قد بينتُ معالم هذا الاصطفاء الإلهي للملائكة، وأنتقل الآن إلى الحديث عن جانب آخر من جوانب الاصطفاء، وهو اصطفاء الزمان والمكان. وهو ما سيكون مِحْوَر بحثنا في الفصل التالي، والله الموفق.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الرابع
اصطفاء الزمان و المكان

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

تمهيد

إنّ الله عز وجل خلق هذا الكون، وأبدعه ونظّمه أحسن تنظيم، ثم إن الله عز وجل اختار بعض ما خلق وميّزهم عن غيرهم من الخلائق، وأسبغ عليهم مزيداً من فضله، وأفاض عليهم سحائب من عزه وشرفه، وجعلهم كالتيجان على رؤوس الأشهاد، وأحلّ هؤلاء المختارين منزلة رفيعة، ومرتبة عالية، تهفو لها القلوب، وتشرئب إليها الأعناق، إنها منزلة الاصطفاء الإلهي، ومنزلة الاختيار والتكريم والتفضيل الرباني ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

ولقد تجولنا في الفصلين السابقين في مجالين مهمين من مجالات الاصطفاء، بل إنهما أهم مجالين فيه، اصطفاء الإنسان واصطفاء الملائكة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومنظومة الاصطفاء لا تقف عند هذين المجالين فقط، بل إنها تتعداهما إلى اصطفاء أزمنة محددة وأماكن مشرفة، اختارها الله عز وجل وشرفها وكرمها وفضلها على غيرها من الأزمنة والأمكنة.

وسنقف في هذا الفصل على أهم الأمكنة والأزمنة المختارة من خلال آيات الكتاب العزيز التي أشارت إلى ذلك، مدعمة هذه الآيات بما يوضح معناها، ويؤكد غرضها من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم إنه لا بد من تقرير حقيقة، وهي أن الآيات التي سنتدارسها في هذا الفصل حول اصطفاء الزمان والمكان لا تصريح فيها بلفظ الاصطفاء، وإنما هي إشارات ترسلها هذه الآيات، وتدعمها أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حول اصطفاء بعض الأزمنة والأمكنة.

وإتماماً للفائدة فقد قسّمت هذا الفصل إلى مبحثين: تناولتُ في المبحث الأول منه اصطفاء الزمان، وفي المبحث الثاني اصطفاء المكان. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وهو رب العرش العظيم.

المبحث الأول

اصطـفاء الزمـان

المطلب الأول: شهر رمضان

إن الله عز وجل قد اختار شهر رمضان، فاصطفاه على سائر الشهور، وخصَّه بفضائل ليست في غيره، وكرَّمه بمكرمات يعز وجودها في غيره.

ونحن إذا أنعمنا النظر في سورة البقرة، وخصوصاً الآيات التي تحدثت عن شهر رمضان وصيامه، فإننا سنقف على بعض مكرمات وميزات هذا الشهر الكريم.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٦].

جميع الحقوق محفوظة

إذا تأملنا هذه الآيات، فإننا ندرك المكانة العالية، والدرجة الرفيعة التي تبوّأها هذا الشهر الفضيل من بين سائر الأشهر. هذه المنزلة، وهذه المكانة هي مكانة الاصطفاء الإلهي. وحتى يتضح الأمر أكثر، ويتقرر في النفوس، فإنني سأشرع في بيان هذه المنزلة:

أولاً: أن شهر رمضان هو مدرسة للتقوى:

والتقوى هي وصية الله للأولين والآخرين من خلقه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

والتقوى هي أساس الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

والمتقون هم أكرم الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣] فالمتقون هم أشرف الناس، لأن الكرام هم أشراف الناس، قال الراغب –رحمه الله–: "وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم".(١)

لذا فإن غاية ما يحصله الإنسان من عبوديته لله التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية

وإذا كان ذلك كذلك، فقد جعل الله شهر رمضان المبارك مدرسة للتقوى، يدخلها المؤمن كل عام، يتفيؤ ظلالها، وينعم بخيراتها، ويغبّ من معينها الذي لا ينضب. والتقوى في هذا الشهر تتحقق للمؤمن من قيامه ببعض الطاعات التي شرعها الله وخصّ بها هذا الشهر الفضيل.

فقد كتب الله صيام هذا الشهر على المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كما كتبه على الذين من قبلهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول الدكتور عودة أبو عودة –حفظه الله–: "وتأمل –أخي القارئ– في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ واختياره لهذا الفعل المبني للمجهول دون أفعال أخرى تتبادر إلى الذهن في مثل هذا السياق، مثل: فرض، أمر، قرر، طلب. إن الفعل (كُتِبَ) وما يُشتق منه ورد في القرآن الكريم بمعنى الشيء المقدّر قبل خلْق الإنسان وبعده لحكمة يعلمها

---

(١) الراغب، المفردات، ص٧٠٧.

الله عز وجل، فيها سعادة الإنسان وخيره، وإن كان هو -أحياناً- لا يدري حدود هذه السعادة وهذا الخير أو لا يستطيع أن يتبينه"[١] ويقول -حفظه الله-: "وانظر -أخي القارئ- أيضاً في هذا الفعل المبني للمجهول (كُتِبَ) فما دلالته وما الفرق بينه وبين كَتَبَ -بفتح الكاف-؟ إني أشعر أن في هذا الفعل المبني للمجهول رعاية وعناية وعطفاً ورحمة. فكأن الذين آمنوا هم في رعاية الله، يقدر لهم ما فيه خيرهم وراحتهم وسعادتهم وهم لا يعلمون.

إن عليهم فقط أن يتبعوا أوامر الله عز وجل وسوف يجدون أن الخير كل الخير فيما كتب الله لهم، وفرضه عليهم. وعندئذ يهتفون بقلوب متبصرة، وتصور سليم: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".[٢]

والصيام له فضائل عديدة: فهو ينشئ التقوى في القلوب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ وهذه الآية جعلت الصيام وسيلة التقوى، فالتقوى غاية الصيام. والصيام بما فيه من استجابة لأوامر الله، ومسارعة لرضاه، وترك لمحبوبات النفوس ومطلوباتها بدون رقابة سوى رقابة الله، ينشئ التقوى في القلوب، وبصلاح القلوب تصلح الأعمال، وبصلاح القلوب والأعمال تصلح الأمة التي جعلها الله قائدة لركب الإنسانية وهادية إلى سبيل الرشاد.[٣]

والصيام نسبه الله إلى نفسه، فهو سبحانه يتولى الجزاء عليه، وهذا يدل على عِظَم قدر الجزاء، وسعة العطاء، لذلك فإن الصائم يفرح عند لقاء ربه مما يجده من العطاء الجزيل، والجزاء الوفير، قال صلى الله عليه وسلم: (قال الله عزّ وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جُنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يسخَبْ، فإنْ سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده! لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة، من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا

---

(١) أبو عودة، عودة، من شواهد الإعجاز في القرآن الكريم، مجلة هدي الإسلام، ص٢١.
(٢) أبو عودة، عودة، من شواهد الإعجاز في القرآن الكريم، مجلة هدي الإسلام، ص٢١.
(٣) انظر: الأشقر، عمر سليمان، الصوم، ص٩.

لقي ربه فرح بصومه)[١]. وعماد الصيام الصبر، والصابرون يوفّون أجورهم بغير حساب ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والصيام يمنع صاحبه من الذنوب والمعاصي. قال صلى الله عليه وسلم -في الحديث السابق-: (والصيام جُنَّة) أي يمنع صاحبه من الآثام. ويقيه من الكلام البغيض والفِعل السيء، ويمنع صاحبه أيضاً من النار.[٢] وفي الحديث السابق يحثّ النبي صلى الله عليه وسلم الصائم على المبالغة في الصبر، بحيث إن أحداً لو شتمه أو حتى قاتله، يرد عليه هذا الصائم بقوله: إني امرؤ صائم. وقد فهم سلَف هذه الأمة الصيام فهماً صحيحاً، وطبقوه، فها هو الإمام أبو حامد الغزالي -رحمه الله- يقسم الصيام إلى ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص، وبيّن أن صوم العموم هو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وصوم الخصوص هو كفّ السمع والبصر واللسان واليد والرِّجل وسائر الجوارح عن الآثام. وصوم خصوص الخصوص هو صوم القلب عن الهمم الدنية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى الله -عز وجل- بالكلية.[٣]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

فليس الصيام إذن هو ترك شهوة البطن والفرج، ليس هذا هو الصيام الذي كتبه الله عز وجل، إنما الصيام الحق هو ترك شهوة البطن والفرج، وحِفظ القلب وسائر الجوارح من الآثام، قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[٤].

وصوم رمضان عن إيمان وإخلاص وابتغاء فضل الله يغفر الله لصاحبه ما تقدّم من ذنبه، قال صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه)[٥].

---

(١) البخاري، الصحيح، ص٣٠٦، ح(١٩٠٤). مسلم، الصحيح، ٢٧٢/٨، ح(٢٧٠٠) واللفظ له.
(٢) انظر: النووي، المنهاج (شرح صحيح مسلم)، ٢٧٢/٨.
(٣) انظر: الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، ٣١٧/١.
(٤) البخاري، الصحيح، ص٣٠٦، ح(١٩٠٣).
(٥) البخاري، الصحيح، ص٣٠٦، ح(١٩٠١). مسلم، الصحيح، ٢٨٣/٦، ح(١٧٧٨).

وصيام يوم في سبيل الله عز وجل يباعد الله بين صاحبه والنار سبعين عاماً، قال صلى الله عليه وسلم: (من صام يوماً في سبيل الله عز وجل، باعدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً)[١].

ومن عجائب الصوم وفضائله، أن ما يكرهه الناس من ريح فم الصائم، يكون عند الله طيباً محبوباً، قال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده! لَخَلُوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسْك)[٢].

ومن تكريم الله للصائمين أن خصَّهم بباب من أبواب الجنة، لا يدخل منه أحد غيرهم، قال صلى الله عليه وسلم: (إنّ في الجنة باباً يقال له الرَّيّان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم، أُغلِق فلم يدخل منه أحد)[٣].

والصوم يُعرِّف المرء بمقدار نعم الله عليه، فالإنسان إذا تكررت عليه النِّعم قلّ شعوره بها، ولكنه إذا لم ينلها مرة ووجدها أخرى أحس بقيمتها، والصوم حين يحرمه من هذه النعم التي في متناول يديه يحس بقيمتها، وبمقدار ما أنعم الله عليه من نعم ضرورية تسدّ حاجته. ثم إن الصيام تذكير عملي بآلام الجائعين وبؤس البائسين، فإذا جوّب الصائم حالهم، وعانى مرات ما يعانون، رقّ لهم وأفاض عليهم مما أفاض الله عليه.[٤]

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

لهذه المعاني كلها، ولهذه المكرمات التي جُعلت للصيام والصائمين، فقد جعله الله وسيلة لتحقيق التقوى، ولقد اصطفى الله شهر رمضان من بين سائر الشهور بأن جعله شهراً للصيام ومدرسة للتقوى.

ثانياً: من فضائل شهر رمضان المبارك أنه الشهر الذي أنزَل الله فيه القرآن، كتابه الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الكتاب الذي أنزله الله للبشرية، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فهو الصراط المستقيم وهو حبل الله المتين، والذِّكْر الحكيم. من ابتغى الهُدى في

---

(١) البخاري، الصحيح، ص٤٧٠، ح(٢٨٤٠). مسلم، الصحيح، ٢٧٥/٨، ح(٢٧٠٦) واللفظ له.
(٢) الحديث سبق تخريجه في الصفحة السابقة.
(٣) البخاري، الصحيح، ص٣٠٥، ح(١٨٩٦). مسلم، الصحيح، ٢٧٤/٨، ح(٢٧٠٣) واللفظ له.
(٤) انظر: القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص٢٩٢. عبد المطلب، رفعت فوزي، الصوم، ص١٤.

غيره أذله الله وقصمه. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

ونزول القرآن في شهر رمضان، بمعنى أنه نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] أو بمعنى أنه ابتدأ نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر من شهر رمضان.[١]

والقرآن الكريم أنزله الله ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ فالهداية كل الهداية في هذا الكتاب الخالد المعجز.

إن هذا القرآن هو كتاب هداية، أنزله الله للناس ليخرجهم من تخبطهم وتيههم إلى النور، ليخرجهم من اتباع السبل المتفرقة المتشتتة إلى اتباع منهج الله وسبيله الأوحد، كيف لا وهو وعاء هذا الدين القويم، الإسلام؟!، ومنزله هو خالق الخلق، الذي يعلم ما جبلوا عليه، ويعلم سرّهم وجهرهم، ويعلم ما ينفعهم وما يضرهم؟!

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

لقد خلق الله الإنسان، وأوكل إليه مهمة عمارة الأرض، وتحقيق عبوديّته لله، ولا سبيل لتحقيق هذه العمارة الناتجة من عبودية الإنسان لله، إلا باتباع كتاب الله الخالد، القرآن.

فالقرآن كتاب هداية، بما حواه من تصوّر واضح عن الخالق، لا إفراط في هذا المنهج ولا تفريط، تصوّر يهدي الإنسان إلى بارئه، وخالقه، من غير لَبس ولا غموض.

والقرآن كتاب هداية، بما حواه من تصوُّر واضح للوجود، تصوُّر يضع كل مخلوق في نصابه ومكانه، ويسلم راية القيادة للإنسان، لكي يقوم بدوره الصعب فيه، عمارة هذا الكون بما شرع الله.

والقرآن كتاب هداية، بما حواه من تشريعات ونُظُم، بعيدة كل البعد عن الغلوّ والمغالاة، تشريعات دقيقة منظّمة توافق فطرة الإنسان، وتسير به سَيْراً مستقيماً لا عوج فيه.

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ١/٢٩٣. قطب، سيد، الظلال، ١/١٧١.

والقرآن كتاب هداية، بما حواه من أخلاق سامية، ترفع صاحبـــــها إلى مقـــام محمود، وترتفع به عن مقام البهيمية المنحطّ.

والقرآن كتاب هداية لكل الناس على اختلاف مشاربهم، ولغاتهم وألوانهم، وأوطانهم... فهو كتاب هداية للناس في كل زمان ومكان.

إن هذا القرآن غيّرَ مجرى التاريخ في زمن نزوله، فقد أنشأ هذا القرآن رجالاً استطاعوا أن يكوّنوا دولة في فترة زمنية وجيزة لا تساوي في عمر الزمن شيئاً، دولـــة اســتطاعت أن تقارع كبرى إمبراطوريات العالم آنذاك، وأن تنتصر عليها في شـــتى الميـــادين: العســكرية، والسياسية، والاقتصادية... وما ذاك إلا لأن هؤلاء الرجال فهموا هذا الكتاب فهْماً صحيحاً، وساروا به، وحلّقوا به في الآفاق، أعطوا هذا الكتاب كل حياتهم، عِلماً وعمَلاً، فنقلهم هــذا الكتاب من الذُّلّ والهوان إلى العِزّ والشَّرَف، فصاروا -بهذا الكتاب- رجالاً يندر مثلـــهم في التاريخ.

جميع الحقوق محفوظة

وفي ظلّ التبعية المهينة التي وصلت إليها الأمة اليوم، فإن القــــرآن في حاجــة لعــودة المسلمين إليه، عودة صادقة جادة، وهي تبعة ثقيلة ملقاة على أبناء هذه الأمـــة، وخصوصـــاً الذين انبروا منهم لدراسة هذا الكتاب العزيز، أن يغوصوا في أعماق القرآن، ويســـتخرجوا كنوزه، ويقدموها للبشرية، على شكل منظومات قرآنية علمية، تشمل جوانب الحياة المهمــة: الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية... وغيرها من المنظومات القرآنية التي تحقق غاية إنزال هذا الكتاب، هداية الناس.

إذاً فقد اصطفى الله عز وجل شهر رمضان وكرَّمه بنزول هذا الكتاب العظيم فيه.

ثالثاً: من فضائل هذا الشهر الكريم، أنه شهر استجابة الدعاء، ولهذا فإننـــا إذا تأملنـــا آيات الصيام في سورة البقرة، نجد أن الله عز وجل حثّ على الدعاء في آية جاءت في منتصف آيات الصيام. قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

إن الله عز وجل كرَّم عباده في هذا الشهر بأن وعدهم أن يجيب دعاءهم على الفـــوْر ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ لم يقُل: فقُل لهـــم: إني قريب، إنما تولى بذاته العَلِيَّة الجواب على عباده بمجرد السؤال: فإني قريب. ولم يقُل: أسمـــعُ

الدعاء، إنما عجل بإجابة الدعاء: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾.(١)

واستجابة الله للعباد مَرجوّة حين يستجيبون له ويؤمنون بـه ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ لهذا كان الصائم أقرب استجابة للدعاء. قال عليه الصلاة والسلام: (ثلاثة لا يُرَدُّ دعاؤهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغَمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الربّ عز وجل: وعِزَّتي لأنصرنَّـكِ ولو بعدَ حين).(٢)

رابعاً: ومن مَكرُمات هذا الشهر الفضيل، أنّ الله عز وجل خصَّه بليلة خير من ألـف شهر، هي ليلة القدر.

قال الله عز وجـل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾ [سورة القدر].

إن الله عز وجل اصطفى ليلة القدر على سائر الليالي، وسُمِّيت ليلة القدر لأهميتها؛ فهي ليلة التقدير والتدبير، قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ ﴾ [الدخان: ٤] -وسـيأتي بيانه بعد قليل- ثم هي ليلة القيمة والمقام.(٣)

ولقد اصطفى الله ليلة القدر وفضلها على غيرها من الليالي، وخصها بجملة خصـائص لا توجد في غيرها:

فهي ليلة نزول كتاب الله العظيم ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ونزول القرآن الكريم هـو حدَث ضخم غَيَّرَ مجرى التاريخ، لا سيما وهو رسالة الله الأخيرة إلى البشرية، الهادية إلى سـواء السبيل. لذا استحق أن يكون الشهر الذي نزل فيه هو خير الشهور، وأن تكون الليلة التي نـزل فيها هي خير الليالي.

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١٧٣/١.

(٢) أحمد، المسند، ٤٦٣/١٥، ح(٩٧٤٣). قال الشيخ شعيب الأرنؤوط ومَن شاركه في التحقيـق: "حديث صحيح بطرقه وشواهده، دون قوله: (يوم القيامة)". ابن ماجه، السنن، ص٢٤٩، ح(١٧٥٢).

(٣) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٣٩٤٥/٦.

وهي ليلة خير من ألف شهر ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾، لذلك كان قيام هذه الليلة خاصة، مغفرة لذنوب العبد، قال صلى الله عليه وسلم: (مَن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم مِن ذنبه).(١)

وهي ليلة يكثُر فيها نزول الملائكة وجبريل عليه السلام، وهم ينتشرون ما بين السماء والأرض طوال الليل. والملائكة يتزلون ليلة القدر من أجل كل أمر يقضيه الله في ذلك العام، فإن ليلة القدر يُفرق فيها كل أمور العام من الآجال والأرزاق... وغيرها من الأمور المقدَّرة.(٢) ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ ﴾ [الدخان: ٤-٥].

وليلة القدر هي ليلة سلام وأمان وطمأنينة ﴿ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾.

جميع الحقوق محفوظة

إن ليلة القدر -لما فيها من عظائم الأمور- لليلة مباركة حقاً، قال الله تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ ﴾ [الدخان: ١-٨].

إذاً، فقد اصطفى الله عز وجل شهر رمضان، وكرّمه بفضائل ليست في غيره من الأشهر، وخصَّه بخصائص ومزايا يعز وجودها في غيره من أشهر العام. وما ذاك إلا لمكانة شهر رمضان المبارك عند ربّ العالمين، مكانة الاصطفاء الإلهي.

---

(١) البخاري، الصحيح، ص٣٠٦، ح(١٩٠١). مسلم، الصحيح، ٢٨٣/٦، ح(١٧٧٨).

(٢) انظر: ابن جزي، التسهيل، ٥٩٤/٢. ابن كثير، التفسير، ١٧٦/٤.

ثم إن الله عز وجل فضّل بعض الأشهر الأخرى -غير شهر رمضان- وميّزها بميزات كريمات، ولكي نعرف هذه الأشهر وهذه الميزات والخصائص فإننا ندع هذا المطلب وننتقل بيُمن الله وبركته إلى المطلب الثاني.

المطلب الثاني: الأشهر الحُرُم

إن الله تعالى قد اصطفى الأشهر الحرم وميزها على غيرها من أشهر السنة بميزات. وهذه الأشهر الحُرُم أربعة، قال الله تعالى في شأنها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة:٣٦].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

إن هذا النص يرد معيار هذا الكون وما فيه من حركة ينتج عنها الزمن، لله سبحانه الذي خلق الكون وأودعه نواميس يسير عليها، هذه النواميس ثابتة لا تتغير ولا تتبدل من يوم خلق الله السماوات والأرض، فقد جعل الله السَّنة مكونة من اثني عشر شهراً، وجعل منها أربعة محرَّمة ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾.

هذه الشهور المحرّمة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب، وقد بيَّنها النبي صلّى الله عليه وسلم حيث قال في الحديث الذي رواه أبو بَكْرة -رضي الله عنه-: "(إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السَّنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم، ورجب شهر مضر، الذي بين جُمادى وشعبان) ثم قال: (أيُّ شهر هذا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: (أليس ذا الحجة؟) قلنا: بلى، قال: (فأي بلد هذا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فسكتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: (أليس البلدة؟) قلنا: بلى، قال: (فأي يوم

هذا؟) قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: (أليس يوم النحر؟) قلنا: بلى، يا رسول الله! قال: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، فلا ترجعُنّ بعدي كفاراً –أو ضلالاً– يضرب بعضكم رِقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلّغه يكون أوعى له مِن بعض مَن سمعه) ثم قال: (ألا هل بلّغت؟)"[(١)].

إن المكانة التي اصطفى الله الأشهر المحرمة لها، ترتكز أساساً على حرمة هذه الأشهر ﴿ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ ﴾ فتحريم هذه الأشهر هو الدين القيم المستقيم، وهو دين إبراهيم وإسماعيل، والعَرَب كانوا ينتسبون إليهما، ومن شعائر دينهما تعظيم حرمات الله التي منها هذه الأشهر.[(٢)]

ثم إن مسألة التحريم والتحليل لأي شيء في هذا الكون، متروكة لله عز وجل وليس لغيره، فيُحلّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء، وهو سبحانه يختار ما يشاء، فقد اختار سبحانه هذه الأشهر وحرَّمها من يوم خلق السماوات والأرض، وهذا هو أساس الدين القيم وركنه الركين.[(٣)]

وقد جعل الله هذه الأشهر بمثابة واحة أمن وسلام وطمأنينة فلا ظلم فيها ﴿ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، ولهذا نصّ الله على تحريم الظلم في هذه الأشهر، مع أنه محرم في كل الأشهر[(٤)]، لذلك كانت هذه الأشهر أشهر طاعة، قال ابن كثير –رحمه الله–: "وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعُمرة، فحرَّم قبل شهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرّم بعده شهراً

---

(١) البخاري، الصحيح، ص٦٠٧، ح(١٧٤١). مسلم، الصحيح، ١٦٩/١١، ح(٤٣٥٩) واللفظ له.
(٢) انظر: الالوسي، روح المعاني، ٣٩٦/١٠.
(٣) انظر: قطب، سيد، الظّلال، ١٦٥٢/٣.
(٤) انظر: ابن كثير، التفسير، ٤٦٨/٢.

آخر وهو المحرَّم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرَّم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً"(١). انتهى كلامه رحمه الله وهو ظاهر لا لبس فيه.

إن هذه الأشهر محرمة إذاً لِما فيها من طاعات وقُرُبات لله عز وجل، ففي هذه الأشهر طاعة عظيمة وقُربة كبيرة، إنها حجَ بيت الله الحرام، والحجّ ليس له جزاء إلا الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: (العُمرة إلى العُمرة كفّارة لما بينهما، والحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)(٢).

وفي هذه الأشهر المحرّمة أيام عظيمة أقسم الله بها في كتابه العظيم، وهي الأيام العشر الأُوَل من شهر ذي الحجة. قال تعالى: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝ ﴾ [الفجر: ١-٥]. هذه الأيام العشر، ما من أيام العمل الصالح فيهن أحبّ إلى الله من هذه الأيام، قال صلى الله عليه وسلم: (ما مِن أيامِ العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله من هذه الأيام) يعني: أيام العشر، قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفْسِه وماله، فلم يرجعْ مِن ذلك بشيءٍ).(٣)

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

وفي هذه الأيام العشر يومٌ عظيم، يوم عرفة، يقف الحُجّاج فيه على جبل عَرَفة في مكة، فيباهي الله بهم ملائكته، قال صلى الله عليه وسلم في فضله: (ما مِن يومٍ أكثرُ مِن أنْ يَعتِقَ الله عز وجل فيه عبداً من النار، من يومِ عَرَفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟)(٤). إنه ليوم عظيم حقاً في شهر عظيم في أشهر معظّمة محرمة مصطفاة.

لقد كَرَّم الله إذاً الأشهر المحرّمة، وخصّها بمزيد فضل، وجعلها محرّمة، وما ذاك إلا لمكانتها عند الله عز وجل، مكانة الاصطفاء الإلهي.

---

(١) ابن كثير، التفسير، ٤٦٨/٢.

(٢) البخاري، الصحيح، ص٢٨٥، ح(١٧٧٣). مسلم، الصحيح، ١٢١/٩، ح(٣٢٧٦).

(٣) البخاري، الصحيح، ص١٥٦، ح(٩٦٩). واللفظ للترمذي، السنن، ص١٩١، ح(٧٥٧).

(٤) مسلم، الصحيح، ١٢١/٩، ح(٣٢٧٥).

المطلب الثالث: يوم الجمعة

لقد اصطفى الله عز وجل شهر رمضان والأشهر الحُرُم على غيرها من الأشهر، واصطفى الله تعالى كذلك يوم الجمعة، وسأبيّن بعض خصائصه وفضائله الدالة على مكانته.

إن يوم الجمعة جعله الله يوم اجتماع أسبوعي للمسلمين، يجتمعون في هذا اليوم وقد هيأوا واستعدوا له ولبسوا أحسن ما عندهم من ثياب، وقد حثّ الله ورغّب في هذا الاجتماع في سورة من القرآن الكريم سُمّيت (سورة الجمعة) فقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ ﴾ [الجمعة: ٩-١١].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

يأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن يتركوا أعمالهم ويتوجهوا إلى صلاة الجمعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ ﴾ والسَّعيُ هنا هو القَصْد والعَمْد والاهتمام في السير، وليس المراد بالسعي هنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٌ ﴾ [الإسراء: ١٩].[١]

وترْك البيع المأمور به في الآية ﴿وذروا البيع﴾ يشير إلى الانخلاع بالكلية عن سائر شؤون التجارة والمعاش، والإقبال على هذه الصلاة.[٢]

والاجتماع لحضور صلاة الجمعة هو اجتماع عظيم لذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم من أراد حضوره بالاغتسال والسواك والطِّيب، فقال صلّى الله عليه وسلّم: (غُسل يوم الجمعة على كل مُحْتَلِمٍ، وسِواك، ويَمسّ مِنَ الطِّيبِ ما قَدِر عليه)[٣].

---

(١) انظر: ابن كثير، التفسير، ٤٦٩/٤.

(٢) انظر: قطب، سيد، الظلال، ٣٥٦٩/٦.

(٣) البخاري، الصحيح، ص١٤٢، ح(٨٨٠). مسلم، الصحيح، ٣٧٢/٦، ح(١٩٥٧) واللفظ له.

ويوم الجمعة هو يوم عظيم حقاً، وفيه حوادث مهمة، قال صلى الله عليه وسلم: (خيرُ يومٍ طَلَعت عليه الشمس يومِ الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخِل الجنّة، وفيه أُخرِجَ منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)[١].

وفي الجمعة ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها خيراً، إلا أعطاه إياه، قال صلى الله عليه وسلم: (إن في الجمعة لساعة، لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه)[٢].

لهذا كان يوم الجمعة يوماً خاصاً بأمة محمد صلى الله عليه وسلم، هداهم الله إليه وأضلّ عنه غيرهم مِن الأمم، قال صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنة، بيْدَ أنهم أوتوا الكتابَ من قَبلنا وأوتيناه من بَعدهم، فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له -قال: يوم الجمعة- فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبعد غدٍ للنصارى)[٣].

لهذا فقد اصطفى الله يوم الجمعة، وهدى له المسلمين، وخصّه بمزيد فضل ليس في غيره من أيام الأسبوع فاستحق أن يكون هذا اليوم عظيماً حقاً.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

(١) مسلم، الصحيح، ٣٨٠/٦، ح(١٩٧٤).

(٢) البخاري، الصحيح، ص١١١١، ح(٦٤٠٠). مسلم، الصحيح، ٣٧٩/٦، ح(١٩٧٠) واللفظ له.

أقول: وقد اختلف في هذه الساعة على أقوال، أصحها قولان:

الأول: أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة.

الثاني: أنها آخر ساعة بعد العصر.

ولكل من الرأيين أدلّته وأنصاره. انظر: النووي، المنهاج (شرح صحيح مسلم)، ٣٨٠/٦. السيوطي، اللمعة في خصائص يوم الجمعة، ص٧٥.

(٣) البخاري، الصحيح، ص١٤٤، ح(٨٩٦). مسلم، الصحيح، ٣٨٢/٦، ح(١٩٧٧) واللفظ له.

المبحث الثاني
اصطفاء المكان

المطلب الأول: مكة المُكَرَّمة

إنّ الله عز وجل اصطفى مكّة، وكرَّمها على سائر البِقاع في الأرض، وميَّزها بخصائص وخِصال ليست موجودة في غيرها.

فقد شاء الله أن تكون هذه البَلدة، هي حاضنة الرسالة السماوية الأخيرة، وأن يكون كِتاب الله عز وجل بلسانها العربي، وهي ميزة عظيمة وُسِمت بها هذه البَلدة، وفي ذلك حِكمة عظيمة؛ فلقد كانت المعمورة -عند مولد هذه الرسالة الأخيرة- تكاد تتقاسمها أربع إمبراطوريات: الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الهندية، والإمبراطورية الصينية. أما الإمبراطوريتان: الهندية والصينية، فقد كانتا مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها، وهذه العُزلة كانت تجعل الإمبراطوريتين الأُخريَيْن هما ذواتا الأثر الحقيقي في حياة البشر وتطوراتها.

أما بالنسبة للديانتين قبل الإسلام -اليهودية والنصرانية- فقد انحرف بها أصحابها حتى انتهتا إلى أن وقعتا تحت نفوذ الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، حيث سيطرت عليهما الدولة في الحقيقة، ولا تسيطران على الدولة، فضلاً على ما أصابهما من انحراف وفساد.

وفي هذا الوقت جاء الإسلام، فلم يكن هناك بُدٌّ من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات، وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حُرَّة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته، بل يكون هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله.

فكانت الجزيرة العربية وأم القُرى وما حولها بالذات هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى.

فلم تكن هناك -في أم القرى وما حولها- حكومة منظَّمة ذات قوانين دقيقة وجيوش، وسُلطة تقف بسلطانها المنظَّم للعقيدة الجديدة، كما هو الحال في الإمبراطوريات الأربع.

ومع أنه كان لقريش سلطان ديني عام في الجزيرة، إلا أنه كان سلطاناً ضعيفاً يقوم على المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قُريش، فضلاً على أنه كان مبنياً أصلاً على

نظامٍ دينيٍ مضطرب قوامه الوثنية الجاهلية الممزقة، ومعتقداتها وعِباداتها المشتتة.

هذا كله بالإضافة إلى ما كان يميِّز أهل مكة -وما حولها- من صفات كريمة وشريفة كالشجاعة والنخوة وسلامة الفِطرة البعيدة عن الفلسفات المعقدة، وهي استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها.

كل هذه الظروف ساعدت في اختيار هذه البُقعة المباركة لحمل الرسالة العالمية الأخيرة.(١)

ومكة هي أمُّ القُرى قال تعالى: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: ٧] قال ابن كثير -رحمه الله-: "وسُمِّيت مكة أمَ القرى لأنها أشرف من سائر البِلاد"(٢).

ولِفَضل هذه البلدة العظيم فقد أقسم الله تعالى بها، فقال سبحانه: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ ﴾ [البلد: ١] وقال سبحانه: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ [التين: ١-٣].

ومِن فضائل هذا البلد أن جعله الله واحة أمن وأمان لكل من يدخله، قال تعالى -عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم-: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ ﴾ [النمل: ٩١] قال أبو السعود -رحمه الله-: "والبلدة هي مكة المعظّمة، وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، والتعرض لتحريمه تعالى إياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم إثر تعظيم، مع ما فيه من الإشعار بعِلة الأمر وموجب الامتثال به كما في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾ [قريش: ٣-٤]"(٣).

والأمن في هذا البلد يغمر أجناساً متعددة، الإنسان والنبات حتى الشوك منه، والصيد، قال صلى الله عليه وسلم: (إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

---

(١) انظر: قطب، سيد، الظِّلال، ٣١٤٢/٥.

(٢) ابن كثير، التفسير، ١٣٦/٤.

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ١٠٨/٥.

إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَدُ شوكه ولا يُنفّر صيده، ولا يلتقِط إلا مَن عرّفها، ولا يختلى خلاها)(١).

ومِن أعظم ما شرفت به هذه البلدة، بيت الله الحرام، قال سبحانه جلّ شأنه: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧]. فقد خصّ الله هذا البيت بجملة من الفضائل:

ومن فضائل هذا البيت أنه أوّل بيت وُضع للناس لعبادة الله سبحانه، وقد جعله الله مباركاً وهدى للعالمين، فهو رمز لِملة إبراهيم. التوحيد الخالص لله عز وجل. وفي هذا البيت دلائل واضحة على قدرة الله مِن أظهرها مقام إبراهيم.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ومِنها هذا البيت أنّ الله جعله بيتاً للأمن والأمان ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾ فهو أمان للخائف من كل سوء وهو منطقة محرّمة في بلدة محرّمة.

ومِنها هذا البيت أنّ الله عز وجل أوجب على الناس في شتى البِقاع حجه ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ والذي لا يريد أن يخضع لأحكام هذا الدّين من الناس، فإن الله غنيٌّ عن العالمين، وطاعة الله لا تعود بالنّفع والفائدة إلا على صاحبها.

والحجّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: (العُمرة إلى العُمرة كفّارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)(٢).

ومِنها هذا البيت أنّ الناس فيه سَواسِية، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ

---

(١) البخاري، الصحيح، ص٢٩٦، ح(١٨٣٤). مسلم، الصحيح، ١٢٩/٩، ح(٣٢٨٩) واللفظ له.

(٢) سبق تخريجه، ص١١٣.

بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج: ٢٥]. فقد جعل الله هذا البيت سواءً للعاكف المقيم فيه، والبادي النائي عنه البعيد الدار منه، فالناس فيه سواسية يتساوى فيه كل عباد الله، لا يملكه أحد ولا ميزة فيه لأحد عن غيره إلا بالتقوى.

ولهذا فقد توعد الله من أراد الإلحاد في هذا البيت مجرد إرادة ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال سيد قطب –رحمه الله–: "إنّ التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة زيادة في التحذير ومبالغة في التوكيد، وذلك من دقائق التعبير.

ومن دقائق التعبير كذلك، أن يحذف خبر (إنّ) في الجملة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ... ﴾ فلا يذكرهم ما هم؟ ما جزاؤهم؟ كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم، ويقرر أمرهم ومصيرهم!"[1].

ومنها أن فيه الكعبة، قبلة المسلمين، ومن خصائص هذه القبلة النهي عن استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض، قال صلى الله عليه وسلم: (إذا جلس أحدُكم على حاجته، فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها)[2].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ومنها أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة، قال صلى الله عليه وسلم: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه)[3].

وقد ظهر سرّ هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة، وهُويّ القلوب، وانعطافها، ومحبتها لهذا البلد والمسجد الحرام، وقد أخبر سبحانه أنّ بيته مثابةٌ للناس[4]، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له

(١) قطب، سيد، الظلال، ٢٤١٨/٤.

(٢) البخاري، الصحيح، ص٣٠، ح(١٤٤). مسلم، الصحيح، ١٤٩/٣، ح(٦٠٩) واللفظ له.

(٣) أحمد، المسند، ٤١٥/٢٣، ح(١٥٢٧١)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط ومَن شاركه في التحقيق: "إسناده صحيح على شرط البخاري". ابن ماجه، السنن، ص٢٠١، ح(١٤٠٦).

(٤) انظر: ابن القيم، زاد المعاد، ٣١/١.

اشتياقاً. فللّه كم لمكة من قتيل وسليب وجريح، وكم أنفق في حُبها من الأموال والأوطان، مقدماً بين يديها أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطب والمشاقّ، وهو يستلذ ذلك كله، ويستطيبه، ويراه -لو ظهر سلطان المحبة في قلبه- أطيب من نعَم المتحلّية وترفهم ولذاتهم.(١)

لذا كانت هذه الأرض -مكة المكرمة- أحبّ البقاع إلى الله ورسوله، قال صلى الله عليه وسلم: (والله إنّكِ لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجتُ منك ما خرجتُ)(٢).

المطلب الثاني: المدينة المنورة

لقد اصطفى الله المدينة، واختارها كما اختار مكة المكرّمة، وميَّزها بجملة خصائص، منها: أنها تُبوِّئت بالإيمان والهجرة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٩] والمراد بالذين تبوّأوا الدار والإيمان هم الأنصار، ومن صفتهم أنهم آمنوا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وهذا إشارة إلى سلامة فطرتهم وعُمق إيمانهم.(٣)

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

والمدينة هي مُهاجَر النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهي مدخل صدق أدخله الله إيّاه عندما أخرجه أهل مكة، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٠]، والمراد بالإدخال هنا هو إدخاله عليه الصلاة والسلام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من مكان أو أمر، وإخراجه منه، فيكون

---

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد، ٣١/١.

(٢) أحمد، المسند، ١٠/٣١، ح(١٨٧١٥). قال الشيخ شعيب الأرنؤوط ومَن شاركه في التحقيق: "إسناده صحيح". الترمذي، السنن، ص٨٨٣، ح(٣٩٢٥). قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب صحيح".

(٣) انظر: ابن عادل، اللباب، ٥٨٥/١٨.

عاماً في جميع المصادر والموارد، ويدخل فيه إخراجه من مكّة وإدخاله المدينة، كما نُقِل عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.(١)

ومن خصائص المدينة أنّ فيها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه، قال عليه السلام: (صلاةٌ في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام من مائة ألف صلاة فيما سواه).(٢)

ومن فضائلها أنها مأرز الإيمان، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها).(٣)

ومن فضائلها أن الله يُهلك من أراد أهلها بسوء، قال صلى الله عليه وسلم: (لا يكيد أهلَ المدينةِ أحدٌ إلا انماع، كما ينماع الملح في الماء).(٤)

ومن مزاياها أن النبي عليه السلام دعا لها بضعفي ما بمكة من البركة، قال عليه السلام: (اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة).(٥)

المطلب الثالث: الأرض المباركة

لقد اختار الله الأرض المباركة واصطفاها كما اصطفى مكة المكرّمة، وجعل الله للأرض المباركة مناقِب وزيَّنها وأهلها بخصال ترفع شأنها وتُبارك مكانتها.

ولكني قبل أن أشرَع في بيان اصطفاء هذه الأرض، أودُّ أن أبيِّن أولاً أن الأرض المباركة هي أرض الشام.(١)

---

(١) انظر: الالوسي، روح المعاني، ١٨٣/١٥.

(٢) سبق تخريجه ص١١٩ من هذه الرسالة.

(٣) البخاري، الصحيح، ص٣٠٢، ح(١٨٧٦).

(٤) البخاري، الصحيح، ص٣٠٢، ح(١٨٧٧).

(٥) البخاري الصحيح، ص٣٠٣، ح(١٨٨٥).

وهذه الأرض قد خصها الله بخصائص عظيمة، وميزات جليلة. فهي أرض باركها الله عزّ وجل. وقد ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله تعالى:

فلقد نجّى الله إبراهيم ولوطاً عليهما السلام من قومهما إلى الأرض المباركة. قال سبحانه: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ولقد نجى الله موسى عليه السلام وبني إسرائيل، من فرعون وملئه، وأكرمهم بأن أورثهم الأرض المباركة من مشارقها إلى مغاربها، فقال سبحانه: : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وسخّر الله لسليمان عليه السلام الريح تجري بأمره إلى الأرض المباركة فقال سبحانه: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقد بيّن الله سبحانه أن هذه الريح تحمل الخير والرخاء والغيث، فقال سبحانه: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص: ٣٦].

ثم إن الله بارك لسليمان في مملكته حتى شملت اليمن، مملكة سبأ، وقد جعل الله بين القرى المباركة من أرض الشام وقرى سبأ، قرىً ظاهرة بارزة بحيث يتنقل الناس بين هذه القرى الظاهرة ليالي وأياماً آمنين.[٢] قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سبأ: ١٨].

إن المرة الأخيرة –حسب التسلسل التاريخي للأنبياء الذين ذُكِرت معهم الأرض المباركة

---

(١) انظر: ابن تيمية، مناقب الشام وأهله، ص٣. ابن عادل، اللباب، ٢٩٠/٩. الالوسي، روح المعاني، ٥٢/٩. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٧٧/٨.

(٢) انظر: ابن كثير، التفسير، ٧٠٤/٣.

في القرآن- التي يذكر الله فيها بركة أرض الشام هي في سورة الإسراء[١]، قال سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

ذهب سيِّد قُطب إلى أنَّ في إسراء النبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام في مكة المكرَّمة إلى المسجد الأقصى في الأرض المباركة، ربطاً بين عقائد التوحيد الكُبرى من لدُن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وربْطاً بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً. وكأنما أُريدَ بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسُل قبله، وارتباط رسالته بها جميعاً، ومن ثَـمَّ إعلان وراثة الرسول الأخير لرسالات الرسل قبله. صلوات الله عليهم أجمعين.[٢]

ومن ميزات هذه الأرض أنها أرض مقدسة، فقد قال سبحانه على لسان موسى عليه السلام لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢١].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ووصْف هذه الأرض بالبركة والقداسة، يقف بنا -من خلال الآيات- على مجموعة من الدلالات[٣]:

أولاً: أن فعل (باركنا) في الآيات السابقة التي تتحدث عن الأرض المباركة، هو فِعل مُطْلَق غير مقيَّد، ولا محدَّد، وهذا يدلّ على أن البركة الربانية لهذه الأرض المباركة، مُطْلَقة غير مقيَّدة، وهي شاملة لكل أنواع البَرَكة، التي من مظاهرها:

البَرَكة الإيمانية، والبَرَكة الأخلاقية، والبَرَكة التاريخية، والبركة السياسية، والبَرَكة الاقتصادية، والبَرَكة الاجتماعية، والبَرَكة الجهادية، والبَرَكة الحضارية...

---

(١) انظر: الخالدي: صلاح عبد الفتاح، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية، ص٢٤.

(٢) انظر: قطب، سيد، الظِّلال، ٤/٢٢١٢.

(٣) انظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية، ص٢٦ و ٣٨.

ثانياً: تخبرنا الآيات أن الله بارك في الأرض المباركة للعالَمين، والعالَمون هم الناس جميعاً على اختلاف الزمان والمكان، في أي بقعة من بقاع الأرض.

ثالثاً: وصْف هذه الأرض بصِفة القداسة دون باقي البِلاد، ووُرود هذا الوصْف في كتاب الله، دليل على أن هذه الأرض هي عنوان القَداسة والطهارة.

رابعاً: جعَل الله هذه الأرضَ المباركة المقدَّسة، لأطْهر وأقدس أمة، التي تحمل أطهر وأقدس رسالة، وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، حاملة الإسلام للعالم، وجعل هذه الأرض لها حتى قيام الساعة.

ولذلك فإن قضية فلسطين هي قضية إسلامية، وليست قضية فلسطينية، أو قضية عربية...، إنها قضية تهم كل مسلم أينما كان، لأنها مرتبطة بالعقيدة الإسلامية، التي هي واحدة عند كل مسلم أينما كان.

إن أرض الشام لأرض مباركة حقاً، اصطفاها الله عز وجل وميزها بفضائل عظيمة، وخصائص عديدة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

الفصل الخامس
سبب الاصطفاء وآثاره

تمهيد

لقد تعرّفنا في الفصل الأول من هذه الدراسة، على مفهومِ الاصطفاء في اللُّغة، وما يحيط به من متعلّقات، ثم عرضنا -فيما بعد هذا الفصل من فصول- لأهم مجالات الاصطفاء، التي عرضها القرآن الكريم وهي: اصطفاء الإنسان، واصطفاء الملائكة، واصطفاء الزمان والمكان.

وبعد هذا التطواف والتجوال في ثنايا الاصطفاء، تبقى هناك أسئلة بحاجة إلى إجابات، تدور حول قضية الاصطفاء.

فهل للاصطفاء سبب؟ بمعنى: هل يوجد للاصطفاء سبب أو أسباب إذا فعلها المخلوق صار مصطفى عند الله؟ أو هل يبني الله اصطفاءه واختياره لمخلوق ما على سبب، لا بدّ أن يوجد في هذا المخلوق حتى يصطفيه الله عز وجل؟

وهل هناك آثار مترتبة على الاصطفاء، سواء كانت هذه الآثار في الدُّنيا أو في الآخرة؟

كل هذه الأسئلة سأحاول الإجابة عنها في هذا الفصل، ولذا قسمتُ هذا الفصل إلى مبحثين:

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الأول: سبب الاصطفاء.

المبحث الثاني: الآثار المترتبة على الاصطفاء.

وقد يقول قائل: لِمَ جعلتَ سبب الاصطفاء في آخر هذه الدراسة؟ وكان مِن الأنسب جَعْله في بدايتها؟ فأقول: إن البحث في سبب الاصطفاء مترتب على دراستنا لمفهوم الاصطفاء وعرض أهم مجالاته، من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عنه، وتحليلها تحليلاً موضوعياً كما مرّ معنا في الفصول السابقة.

المبحث الأول
سبب الاصطفاء

إنّ المتأمِّل لآيات الكتاب العزيز التي عالجت قضية الاصطفاء، والتي مـرّت معنا في الفُصول السابقة، يجد أن الله عز وجلّ لم يجعل اصطفاءه للمخلوق واختياره له مبنيـاً على سبب، وإنما كان اصطفاؤه سبحانه هو محض هبة منه لا دَخْلَ للمخلوق فيها، بمعـنى أنـه لا يمكن للمخلوق أن يقرِّر هل هو من جملة المصطفين أو لا؟

وإنما الذي يحدِّد قضية الاصطفاء هو الله عز وجلّ وحدَه، ولم يترك هذه القضية لأحـد غيره، قال الله عز وجـل: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص: ٦٨]. فصفة الخلق هي لله تعالى، وبما أنه هو سـبحانه الخلاّق العليم، كان سبحانه هو وحده المصطفي المختار، ولذا فقد نسبت الآيات الاصطفاء لله عز وجل، ويستطيع القارئ الكريم مراجعتها في الفصول الماضية، وسيأتي بعد قليل بعض منها.

إذاً فإنّ الله عز وجل يصطفي ما يشاء ومن يشاء هبة منه ومِنّة وتفضُّلاً، من غير سـبب، فلا يصطفي الله عز وجل المخلوق لطاعته أو لصفاء روحه أو لكثرة تفكّره...

مركز ايداع الرسائل الجامعية

وهذا المفهوم نطقت به كل آيات الاصطفاء صراحة، وقد سبق عرْض هذه الآيـات في الفصول السابقة ولا بأس أن نستذكر بعضاً منها هنا، وننعم النظر فيها:

قـال سـبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقـال جلّ شـأنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص: ٤٦-٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وقال جلّ شأنه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣].

مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وقال سبحانه: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهكذا فإن كلّ آيات الاصطفاء تنطق صراحة بأن الله عز وجل يصطفي من خلقه من يشاء وما يشاء، وأن اصطفاءه هو هبة منه وتفضُّل من غير سبب.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن من صفات الله عز وجل العلم والخبرة، وهو سبحانه يصطفي ويختار بناء على علمه وخبرته، كيف لا؟ وعلمه سبحانه يحيط بكل الأمور، ظاهرها وباطنها وهو الذي يعلم السرّ وأخفى.

وهذه هي القضية الأولى التي لا بد من تقريرها، وهي أن الله يصطفي من يشاء وما يشاء من غير سبب، وأن اصطفاءه مبني على عِلمه سبحانه وخبرته في أحوال المخلوقات.(١)

---

(١) انظر: ابن عادل، اللباب، ١٤/١٥٣. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/٣٤٤.

أما القضية الأخرى التي أود تقريرها فهي: أن الله عز وجل، بعد أن يصطفي المخلوق ويختاره ليؤدي دوراً ما في هذا الكون، فإنه يضع فيه من الخصائص والميزات التي تجعله يؤدي الدور المطلوب منه والوظيفة التي أنيطت به، على أجْمَل وجه وأتمّه.

وهذه الميزات هي ميزات خير وكرَم، فإن أدّى المخلوق الدور الذي وُكِل به فاز وحصَل على الثناء العظيم من الله عز وجل، وإن لم يقم بهذا الدّور خسر وخاب وذمّه الله عز وجل.

وقد يظن البعض أن هذه الميزات والخصائص التي يودعها الله المخلوق للقيام بدوره ووظيفته التي أنيطت به، قد يظن أنها سبب أو أسباب للاصطفاء، وأنه بإمكان أيّ مخلوق أن يتحصل عليها ثم يبلغ مرتبة الاصطفاء! وهو قول مغلوط.

وهذا الكلام مجمل بحاجة إلى تفصيل وتوضيح من خلال عرض الأمثلة، وبالمثال يتضح المقال:

جميع الحقوق محفوظة

فأقول: إن الإنسان -مثلاً- مخلوق اصطفاه الله عز وجلّ وقد جعل الله له دوراً عظيماً في هذه المعمورة، وهو أن يكون خليفة لله عز وجل، يطبق أمر الله، ويعمر الكون بما شرع الله. وقد زوّد الله هذا المخلوق بخصال تجعله يقوم بهذا الدور على أكمل وجه، ومن هذه الخِصال التي سبق بيانها في الفصل الثاني: العقل والإرادة والخِلقة على أحسن هيئة، والحرية...

وهذه الميزات والخِصال ليست هي سبب الاصطفاء، بمعنى أنّ بعض المخلوقات قد يوجَد فيه معظم هذه الخِصال، ولكنه لا يكون مصطفى، إذاً فالله عز وجل اصطفى هذا المخلوق هِبة منه وتفضُّلاً ثم زوّده بهذه الخِصال ليؤدي الدور الذي وُكل به.

والأنبياء مصطَفون لحمل الرسالة، وقد جعلهم الله خير الناس وأفضلهم، وأكرمهم بجملة أمور تساعدهم على حمل هذه الأمانة وأدائها للناس على أتم وجه كما أمرهم الله عز وجل. ومن هذه الأمور التي كرمهم الله بها: الفِطنة والذّكاء والصِّدق والأمانة وقوّة التبليغ... وهم يعلمون أن الله كرمهم بهذه الأمور واختارهم لمكانة عالية هي مكانة النبوّة، ولذلك فهم كثيرو الطاعات، والقُربات لله عز وجل، وهم النموذج الحي لطاعة الله وشكره، والله سبحانه يعلم قبل أن يصطفيهم أنهم سيشكرون ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقد يظنّ البعض أن هذه الصِّفات التي اختصّ بها الأنبياء، وهذه القُربات التي يؤدونها شكراً لله، هي سبب اصطفائهم، بمعنى أنه بإمكان أيّ مخلوق آخر أن يتحصل عليها ثم يتحصل على مرتبة الاصطفاء، وهو كلامٌ بيّن الخطأ.

وهكذا دين الله سبحانه، اصطفاه الله وزوّده بخصال وخصائص جعلته الدِّين المصطفى. وبعض هذه الميزات قد توجد في الأديان الأخرى ولكنها لا تتحصل على مرتبة اختيار الله لها، لأن دين الله هو الحق وما عداه باطل.

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاها الله عز وجل على غيرها مِن الأمم، وخصَّها بخصائص ليست موجودة في غيرها، لتؤدي دورها قائدة للبشرية، وهذه الصفات والخصائص وإن كان يوجد بعضها في الأمم الأخرى إلا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي الأمة المصطفاة.

وكذلك الشهداء فهم مصطفون على سائر الناس؛ ذلك أنه بمقدور المسلم أن يجاهد ويعرض نفسه للشهادة، ولكن الله عز وجل يهبها ويتفضل بها على من يشاء.

والملائكة مخلوقات اصطفاها الله عز وجل، وجبلهم على الطاعة والعبودية له سبحانه، وليس بمقدور أحد أن يبلغ مرتبتهم في الطاعة والعبادة.

وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الأزمنة والأمكنة كشهر رمضان، وليلة القَدْر... ومكة المكرّمة والأرض المباركة، فقد اصطفى الله هذه الأزمنة والأمكنة على غيرها، وزودها بخصائص لتؤدي أدواراً معينة، وهذه الخصال ليست موجودة في غيرها وبالتالي ليس لأي زمان أو مكان آخر أن يبلغ مرتبتها التي جعلها الله لها وهي مرتبة الاصطفاء.

ونختم هذا المبحث بذِكْر هذه القصة التي تؤيد وتؤكد أن الله سبحانه يهب اصطفاءه لمن يشاء من غير سبب، فقد طلَب الملأ من بني إسرائيل –من بعد موسى– من نبيّ لهم أن يبعث لهم ملِكاً ليقاتلوا عدوهم في سبيل الله، خاصة وأنهم قد أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم.

فطلب لهم نبيهم مِن الله عز وجل أن يبعث لهم ملِكاً، فبعث الله لهم طالوت ملِكاً، فماذا كان ردهم وما هو موقفهم من طالوت؟ هذا ما تبيّنه لنا هذه الآيات من سورة البَقرة، قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ

مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٤٧].

إن الملأ من بَني إسرائيل طلبوا مِن نبيهم أن يبعث لهم ملِكاً -أيَّ مَلِك- ولم يشترطوا له شروطاً، وادّعوا أن الغاية مِن بَعْثِ الملِك هي قتال عدوهم في سبيل الله، خاصة وأنَ عدوهم أخرجهم من ديارهم وأبنائهم، وما دامت هذه غايتهم فلا يهمّ كوْن الملِك المبعوث قوياً أو غير قويّ، عالِماً أو غير عالِم، صاحب مال أو ليس له مال.[1]

وقد بعث الله لهم مِلكاً يُقال له طالوت، اصطفاه واختاره لهذه المهمة، وعند ذلك حصل ما لم يكن في الحسبان، ولكنها طبيعة بني إسرائيل الملتوية التي لا تعرف إلا الاعتراض على أوامر الله وتغييرها وتحريفها.

اعترض الملأ من بني إسرائيل على اصطفاء الله عز وجل واختياره لطالوت ملِكاً عليهم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ وهذا هو الذي يهمنا في موضوع بحثنا؛ فقد ظنّ بنو إسرائيل أن الله عز وجل يبني اصطفاءه واختياره على أسباب كالمال والحسب والنسب... وطالوت لم يكن من نسل الملوك فيهم[2]، ثم هو ليس من أصحاب الأموال حتى يغضُّوا الطَّرف عن نسبه، واعتراضهم هذا كان ناشئاً عن الغبش في تصورهم؛ إذ إن الله عز وجل لا يبني اصطفاءه على سبب، وهذا ما أراد نبيهم أن يلفتهم إليه[3]

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

إن الله اصطفى طالوتَ على بني إسرائيل ثم ميّزه بخصال وخصائص تساعده في القيام بوظيفته، وهذه الخصال هي: القوة في العلم والجسم، وليست هذه أسباب اصطُفِي طالوتُ

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ١/٤٥٥.

(٢) انظر: قطب، سيد، الظلال، ١/٢٦٧.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢/٤٩١.

من أجلها، وإنما كان اصطفاؤه هِبة من الله وفضلاً، فالله يؤتي ملكه من يشاء من عباده من غير سبب، والله واسع عليم، فهو سبحانه يبني اصطفاءه واختياره على علمه وحكمته، والله تعالى أعلم.

وبعد هذا البيان حول قضية سبب الاصطفاء، نأتي الآن لبيان أهم الآثار المترتبة على الاصطفاء، وذلك سيكون بمشيئة الله في المبحث الآتي.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

المبحث الثاني
الآثار المترتبة على الاصطفاء

إن الآثار المترتبة على الاصطفاء تتعدد بتعدد نماذج الاصطفاء، ولذا فإنني سوف أقسّم هذا المبحث إلى مطلبين، أجعل في المطلب الأول الآثار المترتبة على الاصطفاء المتعلق بالإنسان، وفي المطلب الثاني الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة والزمان والمكان.

وإنما جعلت آثار الاصطفاء المتعلق بالإنسان في مطلب مستقل، لأهمية الاصطفاء المتعلق بالإنسان، وللروابط الكثيرة بين الإنسان وكلٍّ من الملائكة والزمان والمكان.

المطلب الأول: الآثار المترتبة على الاصطفاء المتعلق بالإنسان

إن الآثار المترتبة على الاصطفاء المتعلق بالإنسان متشعبة وكثيرة، ولكني في هذا المطلب سأحاول إلقاء الضوء على أهمها، ولذا فسوف أركز الحديث هنا -في هذا المطلب- في ثلاث قضايا أساسية هي: الوظيفة المترتبة على الاصطفاء المتعلق بالإنسان، وما يناله الإنسان المصطفى في الدُّنيا والآخرة.

أولاً: تحقيق العبودية:

إن الوظيفة المترتبة على الاصطفاء المتعلق بالإنسان، هي نفسها الهدف أو الغاية من وجوده، وهي تحقيق العبودية لله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ووظيفة العبودية لله عز وجل هي وظيفة كل مخلوق، فما من مخلوق إلا وكان الهدف من إيجاده العبودية لله، ولكن المصطفَين مطالبون بتحقيق العبودية أكثر من غيرهم، لا سيما وهم مقرَّبون من المليك، والمقرَّبون منه سبحانه يعرفونه أكثر من غيرهم.

والإنسان بصفته مخلوقاً مصطفى -بل هو أهم المصطفين عموماً- مطلوب منه تحقيق العبودية لله، فإذا قام بهذه المهمة صار عند الله في مرتبة عالية، ومكانة رفيعة، واستحقّ الاصطفاء، أما إذا اختار الأخرى، الكفر والضّلال، وحاد عن وظيفته التي اصطُفِي للقيام بهذه

فإن مكانته تنزل إلى ما دون مكانة البهائم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لقد كرّم الله هذا الإنسان بأن اصطفاه ليكون عبداً له، ولكنّ بعض الناس قد يضل الطريق، ويحيد عن سبيل الهداية، لذا فقد اصطفى الله رُسُلاً وأنبياء ليقوموا بتحقيق العبودية لله عز وجل، وليرجعوا البشر إلى خالقهم ليكون الكل عبداً لله.

والرسُل والأنبياء هم أوّل الناس عبودية لله تعالى، ثم إنهم هم القائمون على تحقيق هذه العبودية في الدنيا، فتجدهم يدعون غيرهم ليل نهار، لعبادة الله، وهم لا يكتفون بأن يكونوا وحدهم عبيداً لله، بل لا يهدأ لهم حال حتى يُعبّدوا غيرهم لله كذلك. ولقد ضرب الله لنا مثالاً رائعاً في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، عندما ناداه ربه بالإسلام له، فأسلم على الفور، وجعل الإسلام وصيته لأبنائه إلى يوم الدين قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣]. فإبراهيم عليه السلام أسلم لرب العالمين وحقق العبودية لله، وجعل الإسلام وصيته للعالمين، ذلك أن الإسلام وحده هو الدين الذي يحقق العبودية لله رب العالمين، لأن الإسلام هو دين الله المصطفى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

إذاً فقد اصطفى الله الإنسان واصطفى له من جنسه رُسُلاً، واصطفى له -كذلك- ديناً، وكلّ ذلك لتحقيق غاية عظيمة في الوجود، العبودية لرب العالمين.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ثمّ إن الله عز وجل جعل أساس رفعة المجتمعات، وقـوام عزّهـا في الإسـلام، فالمجتمع المسلم والأمة المسلمة هي التي بيدها زمام القيادة في هذا الكون، وبالإسـلام وحده تعلو أمة على الأمم، وتتربع على رأس القمم، وبغيره تهبط الأمم وتنحـطّ إلى أسـفل السّـفل، قـال تعـالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (١١٠) ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والإنسان مطلوب منه تحقيق العبودية حتى ولو كان ذلك بذهاب حياته، لذلك اختـار الله الشهداء الذين يضربون للناس أروع المثل في تحقيق العبودية لله، وذلك بدمهم وذهـاب أنفسـهم ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠) ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

جميع الحقوق محفوظة

إن طريق العبودية لله طريق وعرة صعبة، لا يظننّ ظان أنها سهلة المسلك، بل هي طريـق محفوفة بالمكاره والمخاطر. لذا فقد جعل الله الطريق لتحقيق العبودية هي الابتلاء والتمحيـص. وطريق الابتلاء لا بد أن يسلكه كل من أراد التحرر من رق العبودية لغير الله، وكل مـن أراد أن يكون عبداً لله وحده. ولنا في رسل الله –عليهم الصلاة والسلام– أسوة حسنة، حين دعوا أقوامهم لعبادة الله، فواجههم أقوامهم بالرفض والتنكيل والتعذيب والتقتيل، حتى وصل الأمر بهم إلى الاستغاثة بمالك الملك طلباً للنصر من شدة العذاب والفِـتن ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقـرة: ٢١٤]. لقد وصل الأمر بالرُّسل من البأساء والضَّراء إلى حدّ الزلزلة! حيث لا يصبر هناك عند هذا الحد إلا من وفّقه الله وثبته.

والاصطفاء لا يعني الراحة والأمان والركون إلى الدنيا، بل إن الاصطفاء يضع المصطفى على طريق الابتلاء والتمحيص، لذلك كان أشدّ الناس بلاء هم صفوة الصفوة، الرسل الأنبياء، قال صلى الله عليه وسلم: (أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)[١].

إن الاصطفاء إذاً يوجب على المصطفى القيام بوظيفته خير قيام، القيام بتحقيقه العبودية لله عز وجل حتى لو كلّفه ذلك حياته ودمه، القيام بهذه الوظيفة وهو راضٍ محتسب شاكر لله على أنعمه والتي من أعظمها نعمة الاصطفاء، وهذا ما فهمه المصطفون من الأنبياء، حيث كانوا أشدّ الناس شُكراً لله ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]. ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ ﴾ [سبأ: ١٣].

جميع الحقوق محفوظة

ثانياً: العلوّ والرِّفعة في الدنيا

إن الجزاء المترتب للإنسان المصطفى في هذه الحياة الدنيا لجزاء عظيم حقاً، إذ إن الإنسان يتبوّأ مكانة سامقة، ومَرْتبة رفيعة، ألا وهي مرتبة الاصطفاء الإلهي.

إن مكانة الاصطفاء تعني الكثير[٢]... فهي تعني أن الله سبحانه جعل المصطفى أصفى المخلوقات من الشوائب وأطهرها من الأرجاس.

وهي تعني أن الله سبحانه جعل المصطفى أكرم المخلوقات، وأفضلها وخيرها.

وتعني أن الله سبحانه قد اختار المصطفى من بين الخلائق ليضعه في قمة العلياء!

تلك إذاً مرتبة الاصطفاء، مرتبة تجمع كل صفات الخير والكرامة، وتجمعها في شخص المصطفى.

ويترتب على هذه المرتبة أثران طيبان: التوبة والهداية[٣]، قال سبحانه عن اصطفاء آدم عليه السلام: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢]. وقال تعالى عن

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث في الفصل الثاني من هذه الرسالة ص٣٢.

(٢) راجع الفصل الأول حول تعريف الاصطفاء في اللغة، والألفاظ القريبة له.

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦/٣٢٧.

اصطفاء إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١] وقال جل شأنه عن اصطفاء الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [الأنعام: ٨٧].

والتوبة من الله على العبد نعمة عظيمة، ذلك أن الإنسان في هذه الحياة قد ينحرف عن الجادّة، ويتّبع الشهوات، فيعصي ربه وخالقه. وعند ذلك تضيق الأرض بما رحبت على العبد، فيحس أن الدنيا تكاد تطبق على أنفاسه، ويدور في ذهنه سؤال يؤرقه: كيف يعصي العبد خالقه ورازقه وموجده؟

ولكن الإله العظيم لم يترك هذا العبد وشأنه، بل فتح له باباً عظيماً يلجُهُ متى شاء، إنه باب التوبة، باب مَن دخله حصل على الخير الوفير حيث تبدل سيئاته حسنات! ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٧٠] إن العبد إذا أذنب ذنباً وأخطأ به العمل وزلّت به القدم، فإن حياته لا تنتهي عند ذلك، بل ما عليه إلا أن يتوب، وعند ذلك لا تمحى سيئاته فقط بل تبدل سيئاته حسنات! وليس هذا فحسب، بل ينتهي به المطاف إلى الجنة ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝﴾ [مريم: ٦٠] فما أروع نعمة التوبة وما أروع الله الذي وهبها للعبد!

إن الإنسان في هذه الحياة الدنيا قد تضلّ به السُّبُل، أما المصطفون فهم لا يعانون من هذا التيه والضّلال، لأن الله هداهم إلى الصراط المستقيم.

إن نعمة الهداية نعمة جليلة، لا يعرفها إلا من تفيّأ ظلالها وذلك أن الضّلال تخبط وضياع، لا يرتاح من يعانيه، ولا يهدأ له بال، يضيع بين الطرق ويحتار أيّها يختار، تطرق ذهنه أفكار وهواجس تذهب به ذات اليمين وذات الشمال، لا يذوق طعم السعادة ولا يتنفس عبق الطمأنينة، حياته تعاسة وانتكاسة وعناء وشقاء...

إن الضالّ يبحث له كل يوم عن إله ليعبده، فتراه يعبد -من سفاهته- الحجر والشّجر والدواب... ولا يعلم أنها دونه في المرتبة وبعبادته لها يسفل عن مرتبتها.

إن السعادة والطمأنينة الحقيقية هي ما يبحث عنه كل إنسان وكل مجتمع، قد يظن البعض أنها في جمع المال أو في الجاه أو في اللعب أو في شرب الخمور أو في الزِّنا واتباع الشهوات... ولكن السعادة الحقيقية إنما تكون في الهداية إلى صراط الله المستقيم واتباع دينه القويم. ولذلك أمرنا الله سبحانه أن ندعوه خاشعين خاضعين متذللين، طالبين منه الهداية إلى صراطه المستقيم وذلك في كل ركعة من ركعات الصلاة عند قراءتنا لسورة الفاتحة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

ولذلك كله أنعم الله على المصطفين بنعمة الهداية إلى صراطه المستقيم، فما أروعها من نعمة منّ الله بها على البشر، أن يعيش الإنسان في سعادة وطمأنينة بعيداً عن التخبط والضَّلال والشُّرود والتيه، وأن يخرج مِن الظُّلمات إلى النور.

إن العدوَّ الحقيقي للإنسان هو الشيطان، وهو دائماً يقف في وجه تكريم الإنسان، لا يريد أن يكون الإنسان أفضل منه، ولكنَّ إرادة الله الذي اصطفى الإنسان واختاره تأبى ذلك، ولقد عرف الشيطان حقيقة أن الإنسان أفضل عند الله منه، عرف هذه الحقيقة منذ أن خلق الله آدم أبا البشر، فأمر ملائكته أن يسجدوا له تعظيماً وتكريماً، ولكنّ إبليس رفض وأبى فعصى ربه وغوى، وأقسم الملعون عند ذلك ألاّ يدع هذا المخلوق وشأنه وأنه سيأتي الإنسان عن يمينه وشماله محاولاً إغواءه بكل ما استطاع من سُبُل، ولكن رحمة الله تنال المصطفين فيستثنيهم الله عز وجل من سلطة إبليس، ولا يجعل له طريقاً عليهم: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ ﴾ [الحجر: ٣٦- ٤٢].

إنّ عباد الله المخلصين المصطفين ليس للملعون عليهم سلطة، ذلك أنهم عرفوا مكائد الشيطان وعرفوا عداوته الحقيقية لهم، وعرفوا غايته، فالتزموا طريق الديّان، فكانوا حقاً عباداً للرحمن.

هذه هي إذاً النّعمة العظيمة في هذا الكون، الهداية إلى الطريق المستقيم، والابتعاد عن طريق الشيطان الرجيم، الذي تنكب طريق الرحمن، وهذه النعمة يتفيأ ظلالها المصطفون فيشكرون الله عليها قلباً وقولاً وعملاً.

ثالثاً: تفيؤ المكانة السامقة والمرتبة الرفيعة في الآخرة:

لقد جعل الله الدار الآخرة خيراً من الدنيا وما فيها، وفضّلها عليها، وجعل في الآخرة الجزاء العظيم، والحياة الباقية، والبُعد عن شقاء الدنيا وتعبها، قال سبحانه: ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧]، وقال جلّ شأنه: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وإن غاية ما يتمناه العبد هو الفوز برضوان الله، ودخول الجنة بسلام، والنجاة من النار، وهذا هو الفوز العظيم، قال سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

جميع الحقوق محفوظة

لقد اصطفى الله الإنسان للقيام بوظيفة العبودية له سبحانه، فإن قام بها كرّمه الله في الدنيا والآخرة، وإكرامه في الآخرة أعظم درجة، وأكبر قدراً ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإسراء: ٢١]، ولذا فإن الله عز وجل يهب المصطفى في الآخرة ما يتمناه، ويجزل له المثوبة ويعظم له الأجر، وتبقى رحمة الله تحيطه من كل جانب، ويبقى فضل الله يكسوه حتى ينجو من النار ويدخل الجنة بسلام.

وهذه هي النعمة الكبرى في الآخرة، وهي أن ينجو الإنسان من العذاب الأليم ويدخل النعيم المقيم.

إنّ يوم القيامة هو يوم الأهوال والحساب والعقاب والعذاب، الكلّ يريد الخلاص بنفسه من العذاب ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]. وفي هذا اليوم العظيم يظهر أثرُ الاصطفاء،

ذلك أن الله عز وجل ينجي المصطفين ويسكنهم فسيح جناته، ويذر الظالمين في جهنم جثياً، وما أروع الصورة التي ترسمها لنا آيات الكتاب العزيز عن كِلا الحالين: حال المخلصين المصطفين، وحال الغاوين الذين تنكبوا طريق الهداية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٢- ٤٨].

ما أروع جزاء المصطفين المخلصين، وما أدق وصف الآيات له، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٣٨- ٤٩].

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

هذا هو إذاً حال أولئك المصطفين في دار الخلود، نعيم مقيم ولذة باقية، تجعل المصطفين في منزلة ليس وراءها منزلة، مرتبة عالية رفيعة، تبين قدر المصطفَى عند المصطفِي.

ونأتي الآن إلى الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة والزمان والمكان وهو ما سيكون الحديث عنه في المطلب الثاني، بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني: الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة والزمان والمكان

٥٥٤٩٦١

لقد بينتُ في المطلب السابق الآثار المترتبة على اصطفاء الإنسان، سواء من حيث الوظيفة أو ما يلاقيه من جزاء وكرامة في الدُّنيا والآخرة، وإنما جعلتها في مطلب مستقل – كما قلتُ سابقاً– لأهمية الاصطفاء المتعلق بالإنسان، وتشعُّب روابطه التي تربطه مع غيره

كالملائكة والزمان والمكان. وأما في هذا المطلب فسيكون الحديث عن الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة والزمان والمكان.

أولاً: الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة:

لقد اصطفى الله الملائكة وجعل لهم وظيفة عظيمة، ألا وهي طاعة الله وعبادته، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف:٢٠٦] وهم دائمون على هذه الطاعة والعبادة. لا يكلّون ولا يملّون: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

والملائكة يقومون بوظيفتهم هذه خير قيام ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝ ﴾ [التحريم: ٦] وهم بقيامهم هذا بوظيفتهم تبوأوا مركزا عظيما، ومرتبة عالية، فهم جند الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له سبحانه.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

ويترتب على اصطفاء الملائكة -بالنسبة لعلاقتهم مع الإنسان- أثران كبيران: إنزالهم منزلتهم والاقتداء بهم والسير على طريقهم في مجال طاعة الرحمن.(١)

إن الملائكة عباد لله اصطفاهم وخصهم بمزيد فضل عن غيرهم، لذا كان على الإنسان أن ينزلهم منزلتهم هذه، وأن يعرف أنهم سفراء الله وعباده فلا ينقص من قدرهم، ولا يرفع درجتهم إلى درجة أعلى من درجتهم، كما فعل المشركون عندما اعتقدوا أن الملائكة بنات الله! فعبدوهم من دون الله، قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ۝ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝ ﴾ [الزخرف: ١٩-٢٠].

---

(١) انظر: الالوسي، روح المعاني، ٢٩/١٧.

إن كِلا النظرتين السابقتين –الإنقاص من قَدْر الملائكة والغلو في رفع قدرهم– قصورٌ في التصوُّر، والتصوُّر الحق هو ما رسمه لنا القرآن، عباد مكرمون اصطفاهم الله سبحانه وجعلهم عبيداً له، قال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] ذلك هو التصوُّر الدقيق، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، وهو تصور نزل به القرآن الذي وضّح لنا قضايا الغيب التي تهمنا ومن ضمنها الملائكة.

تلك إذاً القضية الأولى وهي وضع الملائكة في مكانهم الصحيح، أما القضية الأخرى التي أودّ تقريرها هنا فهي: أنّ القرآن عندما تحدث لنا عن الملائكة، كان كثيراً ما يتحدث لنا عن طاعة الملائكة لربهم وعبادتهم له –انظر مثلاً الآيات السابقة [الأنبياء: ٢٦-٢٩]– وهذا الحديث عنهم لم يأت عبثاً، وإنما جاء لينبه الإنسان إلى الغاية من وجوده وهي عبادة الله، فلينظر الإنسان إلى عبادة الملائكة، وهم خلق اصطفاهم الله عز وجل وكرمهم، ومع ذلك فهم في عبادة دائمة لله، فلِمَ لا يسير الإنسان على دربهم فيعبد ربه وخالقه؟ لِمَ لا يطيع الإنسان ربه وقد اصطفاه وكرّمه كما اصطفى الملائكة وكرّمهم فأطاعوه ولم يعصوه؟

ثانياً: الآثار المترتبة على اصطفاء الزمان والمكان:

إن الزمان والمكان مخلوقات لله عز وجل، وهما باقيان ما بقيت الحياة، أما في الآخرة فإنهما يذهبان ويزولان، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقد تبين لنا سابقاً –في الفصل الرابع– أنّ الله عز وجل قد اصطفى بعض الأزمنة والأمكنة، وفضّلها على غيرها، كشهر رمضان وليلة القَدر والأشهر الحُرُم ويوم الجمعة، ومكة المكرّمة والأرض المباركة، ولا بد من تقرير حقيقة هنا، وهي أن الله عز وجلّ اصطفى هذه الأزمنة والأمكنة لتحقيق دور عظيم في العبودية لله، فهي عبارة عن محطات للتخلص من الشوائب التي تعلق بالإنسان في حياته، فيتفرغ في هذه الأزمنة والأمكنة لعبادة الرحمن، خاصة

وأن هذه الأزمنة والأمكنة المصطفاة اختصت بزيادة الأجور والثواب، عن غيرها من الأمكنة والأزمنة.

وقد بيَّن الرازي -رحمه الله- الحكمة من تخصيص بعض الأوقات وبعض الأماكن بمزيد تعظيم فقال: "ذلك يوجب أنواعاً من الفوائد:

أحدها: أنّ تَرْكَ القبائح في تلك الأوقات أمرٌ مطلوب لأنه يُقِلّ القبائح.

وثانيها: أنّه لما تركها في تلك الأوقات فربما صار تركُه لها في تلك الأوقات سبباً لميل طبعه إلى الإعراض عنها مطلقاً.

وثالثها: أنّ الإنسان إذا أتى بالطاعات في تلك الأوقات وأعرض عن المعاصي فيها، فبَعْد انقضاء تلك الأوقات لو شرع في القبائح والمعاصي صار شروعه فيها سبباً لبطلان ما تَحمَّله من العناء والمشَقَّة في أداء الطاعات في تلك الأوقات، والظاهر من حال العقل أن لا يرضى بذلك فيصير ذلك سبباً لاجتنابه عن المعاصي بالكلية، فهذا هو الحكمة من تخصيص بعض الأوقات وبعض البقاع بمزيد من التعظيم والاحترام"[1] انتهى كلامه -رحمه الله- وهو كلام رائع فيه الغنية والكفاية.

وبختم الحديث عن الآثار المترتبة على اصطفاء الملائكة والزمان والمكان نكون قد فرغنا من الحديث عن الآثار المترتبة على الاصطفاء. وهذه الآثار غيض من فيض، ولكني أردتُ بيانها بشكل موجز، يفي بالغرض من غير إطالة، وآمل أن يكون الله قد وفقني لهذا.

وبهذا الفصل نكون قد انتهينا من التطواف في ثنايا الاصطفاء في القرآن، بدءاً بتعريفه في اللغة، ومروراً بنماذج عليه: الإنسان والملائكة والزمان والمكان، وانتهاءً بمعرفة سببه والآثار المترتبة عليه، والله أسأل، أن يكون هذا العمل قد حقق الفائدة المرجوَّة منه، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ٤٢/٦.

الخاتمة

بعد هذا التجوال في ثنايا الاصطفاء في القرآن الكريم، وقبل أن أضع قلمي، لا بد أن أقرر هذه النتائج:-

أولاً: أنّ الاصطفاء في اللغة مأخوذ من الجذر (صفو) ويدلّ على خلوص من كل شوب، والاصطفاء يعني تناول صفو الشيء وهو خالصه وخياره، والمصطَفَى خالٍ من الشوائب وهو كثير الخير.

ثانياً: أن اصطفاء الله للشيء يكون على قسمين:

١- قد يكون بإيجاده صافياً عن الشوب الموجود في غيره كاصطفاء الله رسلاً من البشر.

٢- وقد يكون باختياره وبحكمه وإنْ لم يتعرّ ذلك من الأول، كاصطفاء الله رسلاً من الملائكة.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

ثالثاً: أن القرآن الكريم أعطى عدة نماذج للاصطفاء الإلهي، ومن هذه النماذج هي: الإنسان والملائكة والزمان والمكان.

رابعاً: أن مرتبة الاصطفاء الإلهي هي مرتبة تمايز بين الخلائق، فهي تضع كل مخلوق في مكانه الذي قدّره الله له.

خامساً: لقد اصطفى الله الإنسان من حيث هو إنسان، وفضّله على كثير من الخلائق، وجعل من تمام كرامته، أن اصطفى له من جنسه رسلاً ليبلّغوه رسالات ربه، واصطفى له ديناً قيّماً لا عِوَج فيه، وجعل الأمة التي تتمسك بهذا الدين هي الأمة المصطفاة المختارة، وسبب علو الأمم وهبوطها هو هذا الدّين.

سادساً: أنّ الدّين الذي اصطفاه الله للعباد هو الإسلام، ولا بد لمن التزم به، ورضيه له ديناً، أن يقدّم له شهادة تشهد بأحقيته في الوجود، وأحقيّة أهله في القيادة للبشرية، حتى لو كلفت هذه الشهادة حياة الإنسان، ولقد ضرب الله لنا أروع مثل في ذلك، الشهداء الذين قدّموا حياتهم رخيصة في سبيل الله عز وجل، فكان لهم الشرف والكرامة، والفضل والاصطفاء.

سابعاً: أن الملائكة عباد الله، اصطفاهم وكرّمهم، وجعلهم سفراءه في خلقــــه، ينفذون أوامره لا يكلّون ولا يملّون.

ثامناً: أن الله عز وجل قد اصطفى بعض الأزمنة والأمكنة على أخرى، فجعل لها مزيداً مــــن الشرف والكرم وميّزها بخصائص ليست موجودة في غيرها من الأزمنة والأمكنة.

ومن الأزمنة التي فضّلها الله على غيرها: شهر رمضان، والأشهر الحرُم، وليلة القــــدر، وعشر ذي الحجّة، ويوم الجمعة...

ومن الأمكنة التي فضلها الله على غيرها: مكة المكرّمــــة، والمدينــــة المنــوَّرة، والأرض المباركة.

تاسعاً: أن الاصطفاء ليس له سبب، بمعنى أنّ الله عز وجل يهبه لمن يشاء من عباده، من غـــير سبب، فلا يكون المخلوق مصطفىً إلا باختيار الله واصطفائه له.

عاشراً: أن الاصطفاء يجب أن يقف بالمصطفى على الغاية من خلقه، وهي تحقيق العبودية لله عز وجل، فالمصطفون هم أولى المخلوقات بتحقيق هذه العبودية؛ لأنهم في مقام القُرب منـــه سبحانه فإن قاموا بالعبودية لله حازوا المثوبة والهداية، ودخلوا الجِنان، وإن لم يقوموا بهـــا فقد خسروا خُسراناً مبيناً.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأزهري، محمد بن أحمد، *تهذيب اللغة*، تحقيق عبد السلام هارون، الـدار المصريـة، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.
- الأشقر، عمر سليمان، *الصوم في ضوء الكتاب والسُّنة*، دار النفائس ومكتبة الفلاح، الكويت، ط٤، ١٩٩٠م.
- الألباني، محمد ناصر الدين، *تخريج أحاديث (فضائل الشام ودمشق) للربعي، ومعـه (مناقب الشام وأهله) لابن تيمية*، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٩٨٥.
- الالوسي، شهاب الدين محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، تحقيق محمد الأمد وعمر السلامي، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التـاريخ العـربي، بيروت، ٢٠٠٠م.
- أبو البقاء، أيوب بن موسى، *الكليات*، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف، *البحر المحيط*، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث، *السنن*، دار الفيحاء، دمشق، دار السلام، الريـاض، ط١، ١٩٩٩م.
- أبو السعود، محمد بن محمد، *إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتـاب الكـريم*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، تحقيق أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٩٩٧م.

- ابن أبي العز، علي بن علي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق أحمد محمد شاكر، منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٤١٨هـ.

- البابابي، إسماعيل بن محمد، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.

- البار، محمد علي، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية، السعودية، ط١، ١٩٩٥م.

- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، دار الفيحاء، دمشق، ودار السلام، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م.

- البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

- البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

- البوطي، محمد سعيد، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، بيروت، ط١١، ١٩٩١م.

- الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع المختصر (السنن)، دار الفيحاء، دمشق، دار السلام، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

- التفتازاني، مسعود بن عمر، المقاصد وشرحه، الآستانة، مصر، ١٣٠٥هـ.
- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق أبي محمد الغماري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ابن جزي، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- الجمل، سليمان بن عمر، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م.
- ابن حزم، علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
- ابن حنبل، أحمد، المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- الحنفي، عبد المنعم، موسوعة الطب النفسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- حوّى، سعيد، الأساس في التفسير، دار السلام، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- الخازن، علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، عمان، ط١، ١٩٩٧م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

- الخالدي، صلاح عبد الفتاح، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية، منشورات فلسطين المسلمة، لندن، ط١، ١٩٩٤م.

- الخفاجي، أحمد بن محمد، عناية القاضي وكفاية الراضي (حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، دار الفجر الجديد ودار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٦م.

- الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.

- الراغب، الحسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.

- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

- الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.

- الزركلي، خير الدين، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

- الزعبي، محمد علي، الماسونية في العراء، مؤسسة الزعبي، ١٩٧٩م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

- الزمخشري، محمود بن عمر، *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- السالمي، عبد الله بن حميد، *مشارق أنوار العقول*، تحقيق عبد المنعم العاني، دار الحكمة، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.

- السامرائي، فاضل صالح، *التعبير القرآني*، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٨م.

- سراج الدين، عبد الله، *الإيمان بالملائكة عليهم السلام (صفاتهم، أصنافهم، وظائفهم، مواقفهم) ومعه بحث مختصر حول عالم الجن*، مطابع الأصيل، حلب، ط٣، ١٩٨٥م.

- السمرقندي، نصر بن محمد، *بحر العلوم*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

- السمعاني، منصور بن محمد، *تفسير القرآن*، تحقيق ياسر بلال وغنيم عباس، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٧م.

- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، *عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ*، تحقيق محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*، تحقيق نجدت نجيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، *اللمعة في خصائص يوم الجمعة*، تحقيق محمد شكور الميادين، مكتبة المنار، الزرقاء، ط١، ١٩٨٦م.

- الشعراوي، محمد متولي، *تفسير القرآن العظيم*، دار أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

- شلبي، أحمد، *أديان الهند الكبرى (الهندوسية، الجينية، البوذية)*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٧م.

- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، ١٩٨٣م.

- الشوكاني، محمد بن علي، *فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير*، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، ط٢، ١٩٩٧م.

- الشيبي، محمود ارشيد، *الصهيونية في الميزان*، وكالة الصحافة الأردنية، عمان، ١٩٧٥م.

- شيخ زاده، محمد بن مصلح، *حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

- الصابوني، محمد علي، *قبس من نور القرآن الكريم*، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- الطبري، محمد بن جرير، *جامع البيان في تأويل القرآن*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م.

- طنطاوي، محمد السيد، *التفسير الوسيط للقرآن الكريم*، مطبعة السعادة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.

- ظاظا، حسن، *الشخصية الإسرائيلية*، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

- ابن عادل، عمر بن علي، *اللباب في علوم الكتاب*، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوّض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، *التحرير والتنوير*، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.
- عباس، فضل حسن، *القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته*، دار الفرقان، عمان، ط٢، ١٩٩٢م.
- ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز، *تفسير القرآن*، تحقيق عبد الله الوهيبي، دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٦م.
- عبد المطلب، رفعت فوزي، *الصوم: أحكامه وأثره في بناء المجتمع الإسلامي*، مطبعة المدني، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.
- ابن العربي، محمد بن عبد الله، *أحكام القرآن*، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٩٧٧م.
- العكبري، عبد الله بن الحسين، *التبيان في إعراب القرآن*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- عياض، أبو الفضل، *الشفا بتعريف حقوق المصطفى*، المكتبة التجارية، مصر.
- الغزالي، أبو حامد، *إحياء علوم الدين*، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ابن فارس، أحمد، *معجم مقاييس اللغة*، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية

- فضل الله، محمد حسين، *من وحي القرآن*، دار الملاك، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.

- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، *تأويل مشكل القرآن*، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.

- القرضاوي، يوسف، *العبادة في الإسلام*، مكتبة وهبة، مصر، ط١٥، ١٩٨٥م.

- القرطبي، محمد بن أحمد، *الجامع لأحكام القرآن*، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٤٠م.

- قطب، سيد، *في ظلال القرآن*، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٩٩٢م.

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، *حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح*، تحقيق عبد اللطيف الفواعير، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٧م.

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، تحقيق محمد البلتاجي، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، *تفسير القرآن العظيم*، دار الفيحاء، دمشق، ودار السلام، الرياض، ط٢، ١٩٩٨م.

- كحالة، عمر رضا، *معجم المؤلفين*، المكتبة العربية، دمشق، ط١، ١٩٦١م.

- ابن ماجه، محمد بن يزيد، *السنن*، دار الفيحاء، دمشق، دار السلام، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.

- الماوردي، علي بن محمد، *أعلام النبوة*، دار الفرجاني، القاهرة، ط١، ١٩٧١م.

- المبارك، محمد، *نظام الإسلام: العقيدة والعبادة*، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧٥م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

- المباركفوري، صفي الدين، *الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام*، دار الفكر، ط١، ١٩٩٤م.
- المراغي، أحمد مصطفى، *تفسير المراغي*، تحقيق باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- المظفر، محمد رضا، *عقائد الإمامية*، مطابع النعمان، النجف.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
- النسفي، عبد الله بن أحمد، *مدارك التتريل وحقائق التأويل*، المكتبة الأموية، دمشق، ومكتبة الغزالي، حماة.
- نوفل، عبد الرزاق، *عالم الجن والملائكة*، مؤسسة دار الشعب، القاهرة.
- النووي، يحي بن شرف، *المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ومعه الصحيح)*، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٩٩٧م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، *سيرة النبي صلى الله عليه وسلم*، تحقيق مجدي السيد، دار الصحابة للتراث، مصر، ط١، ١٩٩٥م.
- وافي، علي عبد الواحد، *حقوق الإنسان في الإسلام*، مكتبة نهضة مصر، مصر.
- ول، ديورانت، *قصة الحضارة الفارسية*، ترجمة إبراهيم الشواربي، مكتبة إبراهيم الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٤٧م.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الأردنية
مركز إيداع الرسائل الجامعية

بحوث في دوريات:

١. الدريني، محمد فتحي، *من أصول سياسة التشريع الإسلامي في إقامة البنية المعنوية للأمة والدولة، فلسفة أصول البعد السياسي للمجتمع الإسلامي المعاصر*، مجلة هدي الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، عمان، المجلد ٤٢، العدد الثامن، ١٩٩٨م، ص٦-٢٠.

٢. أبو عودة، عودة، *من شواهد الإعجاز في القرآن الكريم*، مجلة هدي الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، عمان، المجلد ٤٢، العدد السادس، ١٩٩٨م، ص٢٠-٢٩.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

Abstract

Selection in the holly quran

By

Ishaq Owadeh Abu Salek

Supervisor

Professor Fareed Mostafa Al-Salman

One of the major subject the Holy Qur'an dealt with is the subject of selecting which this study discusses. It discusses the importance of selecting in the Holy Qur'an, the thing which present one of the Holy Qur'an's miraculous nature in the various domains of humanitarian life. This study reveal the many misconceptions pertaining to the dimension of selecting, its domains, purposes, its effects and its scientific methodological and fundamental development. In accordance with rules set by scholars.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية

This study also clarifies the linguistic meaning of selecting and other relevant idioms. Then it goes on to discuss the main domains of selecting such as: selecting people, angles, places and times. As for the first one, Allah (the Al-Mighty), choose the human being form amongest his other creatures and then selected from amongest the Humans the messengers and revealed on them his religion and made the later the standard the commitment to which humans-individuals or nations-can ascend spiritual and materially to the highest ranks. As for selecting times and places, Allah (the Al-Mighty) assigned certain times as better and Holier than others such as: the month of Ramadan, the Night of Decree, Friday and the first ten day of Dhu Al-Hujjah. He (the Al-Mighty) assigned some places as better and holier than others such as the Holy Makkah and the blessed area.

The study concluded that the act of selecting depend on no single purpose, ie Allah (the Al-Mighty) grant holiness to whomever and whatever He choose with no definite purpose. The study shows that Allah (the Al-Mighty) assigned selection only to establish bondship for Him (the Al-Mighty) This bondship gives individuals as well as nations the chance to ascend to different rank-the highest of which is the rank of Allah's

friendship - in proportion to their commitment to religion otherwise they will descend to the lowest pits of darkness.

جميع الحقوق محفوظة
مكتبة الجامعة الاردنية
مركز ايداع الرسائل الجامعية